سحب وتعديل علاء عبـــد ربك هنيدي

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب
The Syrian General Organization of Books

مدونة أبو عبدو

خيوط الهواء

رواية

هيسم جادو أبو سعيد

قصص وروايات 17

خيوط الهواء

هيسم جادو أبو سعيد

خيوط الهواء

رواية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة — دمشق ٢٠٠٨

خيوط الهواء: رواية / هيسم جادو أبو سعيد .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٨ .- ١٣٦ ص؛ ٢٠ سم.

(قصص وروايات ؛ ١٧)

١- ٨١٣,٠٣ س ع ي خ ٢- العنـــوان
٣- أبو سعيد ٤- السلسلة

مكتبة الأسد

قصص وروايات

«١٧»

الإهداء:

إلى **ك** ...

الضياء الذي جرحني مجرد أن أحلم به...

تنويه:

١- حتى الرواية... هذا الإله القادر على خلق وإبادة أي عالم أو أي زمان أو أي مكان شعرت بالعبء من خلق شخصيات وصنع تاريخ لها بعد كل ما خلقت من سواها... إذ لم يكن لديها سبعة أيام كمتسع لإعمال إرادتها، فاضطرت لاقتطاع شخصيات من سياقها ليكون لها أسماؤها وتاريخها، لتوظفها غاضة النظر، رغم كل تلك المعاناة، عن امتداد ذاك التاريخ، لتصنع لها أرواحها الجديدة رامية بالتاريخ عُرض الفناء...

٢- لا زالت الرواية تؤكد بمكر أن أي تشابه بين أحداثها وشخصياتها وبين أحداث وشخصيات الواقع هو محض مصادفة، تتمنى أن تظل عابرة، كي لا تقتل مخلوق الرواية الأول... راويها الذي وضعت اسمه قرب عنوانها على صفحة الغلاف، فيصير بين كل مخلوقاتها، التي ربحت الانبثاق إلى الوجود، الخاسر الوحيد...

٣- ما عانت الرواية لخلقه هي الوحيدة المخولة بهدمه في لحظة طيش أدبي...

ملبومينا:

أتمنى أن لا تفضي بي هذه الكتابة إلى ما أتوقع... ولأنني لا أتوقع أن تجر علي الخير، فإنني أستغرب اندفاعي إليها،وكأنني كائن بشري يتجه نحو المنحدر ليلقي نفسه غير آبه بما هو متأكد من الوصول إليه... الموت محطماً على صخور الوادي!! لكنني أشعر أن امتناعي عن كتابة ما يجري من حولي هو خيانة لألوهيتي، فطوال الآزال والآماد التي شهدتُها لم أشهد صراعاً بهذا الشكل!!

كانت الصراعات تدور أمامي بين الآلهة أنفسهم، أو بين الآلهة وأنصاف الآلهة، أو بين أنصاف الآلهة والبشر؛ أما أن يصير الصراع بين الآلهة وبين البشر، وأن يتحالف العديد من الآلهة مع البشر ضد آلهة منهم لا من ساداتهم، وأن...

حتى الآن لا أجرؤ على التلفظ بهذه الجملة، لكنني واثقة من أن كل من سيقرأ هذه الحكاية سيتوصل إلى استنتاج ما خشيت كتابته بعد هذه الـ « أن»...

أضف إلى ذلك أنني رغبت في إتمام ما بدأه ذاك الرجل جبل الذي سيأخذ أكثر من اسم خلال هذه الحكاية، حين راح يكتب قصة حياته عند شعوره باقتراب نهايتها!! أعجبني أسلوبه ورغبت في كشف الأسرار التي غمضت عليه، كي لا يستمر في شعوره بالأسف والعجز... لهذا تركت لغة الآلهة التي اعتدت أن أكتب بها واتخذت لغته وسيلة لإيصال ما غمُض عليه، بل وحاولت استخدام نفس أسلوبه في الكتابة كي أشعره بقربي منه وبقربه مني رغم أننا لم نلتق أبداً... فللآلهة أيضاً قدرتها على الاحترام و... على الحب...

إلا أنني شعرت بالحيرة حول اللحظة المناسبة لتقديم هديتي هذه له... أأقدمها في بداية كتابته لقصته كي أكشف له كل أسرارها؟! أم في نهايتها كي يعود إلى قراءتها وقد امتلك مفاتيح الأبواب التي كانت موصدة؟! أم...؟!!

فمشكلة أولئك البشر أنهم يعيشون الزمن كطريق في اتجاه واحد! فكل خطوة يخطونها تصبح أبعد عنهم من مئات الأميال القادمة، لأنها على كل حال أميال قادمة... حتماً قادمة، أما الخطوة فصار التراجع عنها مستحيلاً!! قد يستطيعون النظر إلى الوراء، لكن الكثير من الحواجز والغبار والعواصف، والكثير من المسافات قد تعوق رؤيتهم لما يرغبون

وقد تشوهها... أما العودة من أجل رؤية أوضح، أو لإصلاح خطأ ارتُكب، فأمر مستحيل... أما نحن – معشر الآلهة – فنطل على أزمانهم كطيور محلقة تطل على حقل واسع، فتستطيع رؤيته في اللحظة ذاتها بكل أبعاده وتشعباته والتواءاته التي لا يتخيلون إمكان وجودها... لهذا تمنيت وأنا أغوص في حيرتي لو أستطيع حمل ذاك الرجل إلى حيث يستطيع مثلي أن يطل على الزمن، فملهمي لكتابة مثل هذه القصة يستحق مثل تلك المكافأة... لكن... ينبغي عليّ أن أظل راوية بعيدة عن كل الأحداث الدائرة...

❖ ❖ ❖

ما نعتبره قصة هو سطح ماء رقيق في بئر ماء ليس له قعر مرئي! فقصة رجل مات لا تبدأ بمرضه ولا تبدأ بولادته ولا تبدأ بزواج والده ووالدته أو حتى بولادتهما!! قصته تبدأ عميقاً في زمن لا تعرف كنهه...

وهذه القصة ككل القصص ليس لها بداية، لكنني مضطرة بسبب استخدامي للغة البشر – أن أتحدث عن بداية وعن أحداث تتتالى كما لو كانت سهماً ينطلق في اتجاه واحد...

❖ ❖ ❖

فلنبدأ القصة من أراكن... العذراء الجميلة... كأن القصص الكبيرة لا تبدأ إلا على أصابع امرأة! قد يكون الرجال أبطالاً بارعين في كل القصص، لكن النساء يبقين الخالقات لها...

أراكن كانت نسمة محمّلة بعطور أكثر الرياض يناعة وجمالاً... كانت شعاعاً من ألوان لا تضاهيها في زهوها ألوان السماء أو الغابات أو الدماء... عيناها كانتا بحرين من ألق وتوهج، ووجهها ثلجاً أمطرته الشمس بضيائها الصباحي الناصع، وأحاطته ليالي الشعر الطويل بدفء الربيع المفعم بالنجوم الزاهية... أما عنقها فقد كان يضاهي أعناق الخيول المتسابقة نحو حلمها في الطيران... وما زاد فتنتها صدر يسابق أرانب الحقول في نفورها، وطولٌ غضٌّ يباهي ضياء الصباح نقاء ونعومة، ويتحدى الرماح صلابة وليونة...

لكن كل هذا الجمال لم يُلهِ صاحبته عما فتحت عينيها عليه لتجعله حياتها كلها! فقد أمضت أيامها تتعلم وتطور فن التطريز والحياكة حتى برعت في صناعة ما لم يستطع بشر صناعته! حاكت أثواباً في غاية الروعة لوناً وملمساً وعطراً، وصنعت من أقمشتها لوحات باهرة أضفت عليها من أنوثتها جمالاً لم ترض أن تحبسه في أعماقها كغيرها من النساء

اللواتي أعلنّ الانصياع ولذن بالصمت... حتى صارت قريتها الصغيرة محجة لمحبّي الجمال الفائق لتصورات البشر، يأتون إليها ليروا أجمل ما صنعت امرأة قد تكون الكائن الوحيد الأجمل مما صنعت!!

وبلغت الثقة في نفس أراكن أوجها حين أعلنت أنها ستتحدى إله الحكمة والفنون والصنائع النسوية... «أثينا»!!!

- لا تفعلي يا ابنتي... نرجوك... فلا شخص يجرؤ على تحدي الآلهة...

وتجمعت حولها القلوب المحبة علها تثنيها عما عزمت، لكن النصح لم يُجد، فروح التمرد تفجرت في نفسها وكأنها ارواح نساء الأرض جميعاً...

في صباح باكر خرجت من بيتها الصغير على ضفة نهر صاف، قاصدة الجبل البادي في البعيد... كانت على يقين ان الآلهة تستطيع سماعها من أي مكان تخاطبها أو تناديها منه، لكنها أرادت أن ترفع من شأن إله ستتحداه وستهزمه بل ترفع من شأن نصرها!!

شعرت بالتعب وهي تلاحظ تناقص حجم قريتها مع كل خطوة تخطوها نحو الأعلى، لكنها استمرت تغذ السير إلى وجهتها، دون أن تلقي بالاً إلى الأشواك التي أحاطت بالدرب الصاعد، وإلى الشمس التي راحت تصب حرارتها فوق الجبل الأجرد كأنها تحاول أن توقظ المتحدية وتردها إلى رشدها...

وعلى القمة القريبة من السماء، وبعد استراحة قصيرة شغلتها نظرة ممعنة نحو بيتها الذي لم يبدُ لها منه إلا عيون محبيها القلقة، فتحت ذراعيها ورفعت رأسها كأنها تنظر في عيون الآلهة مباشرة، وصرخت:

- أيها الإله العظيم أثينا... أنا أراكن... أبرع من عمل بالحياكة والتطريز على وجه الأرض حتى الآن... وأنا على ثقة من أنني سأكون الأبرع في طول السماء وعرضها!! فإن كنت حقاً إله الفنون والصنائع النسوية الذي لا يُجارى فإنني أتحداك كي تثبت هذا، أو كي تتنحى لي عن ألوهيتك المزعومة!!

تناهى نداء الصبية إلى أسماع الآلهة فصار أثينا أضحوكة لها:

- أي إله ذاك الذي تتحداه فتاة هشة من البشر؟!!

- مسكين يا أثينا... ستترك كرسي الألوهية لتلك الجميلة صاغراً!!

- أثينا... الأفضل أن تنسحب وتحفظ ماء وجهك!!

لكن الآلهة هي الآلهة... أشد تمسكاً بألوهيتها من تمسك البشر الضعاف بقوتهم حين ينالون رمقاً من قوة... لهذا استشاط أثينا غيظاً، وهو يسمع صراخ تلك الحشرة الأرضية وهزء أولئك المغرورين الفاسدين...

اربدت السماء، واهتزت الأرض، وعلا صراخ أثينا حتى غطى الرعود والتحطمات، واشتعل الخوف في قلوب الناس في تلك القرية الصغيرة حين لمحوا الظل الرهيب لذلك الإله يهجم باتجاههم...

كان يريد أن ينتقم من تلك المتغطرسة، لكن بعد أن يحرق قلبها ويجعلها تندم في كل لحظة على ما اقترفت، حتى بعد أن يرسلها إلى العالم المظلم مكللة بعار هزيمتها... فالانتقام بضربة واحدة لا يشفي غليلاً، ولا يؤدب من في نفوسهم بذرة تمرد!!

كانت لا تزال بعيدة عن القرية، لكنها لمحت الغضب الذي حاق بها فراحت تركض باتجاهها وقد طافت مخاوفها فأغرقت ذاك الحماس الذي كان يغمرها منذ لحظات...

أثينا وجد في منزل تلك الفتاة ما لم يتوقع أن يجده... أروع ما رأى من صناعة بيد بشر... لكنه داس فكرة إمكان تركها دون عقاب بعد ما فعلت، رغم أن الفكرة طافت في خاطره عندما رأى كل هذا الإبداع:

- أبهذا تريدين أن تتحدي الآلهة أيتها المسكينة؟!!

وراح يقطّع بيدين من غضب ما صنعت يدان من حرير، دون أن يلقي بالاً إلى صراخها المفجع القادم من بعيد...

❖ ❖ ❖

في روحها... أمام منظر التمزق الذي مزّق روحها، صرخ الألم:

«لقد انتهيت...»

بينما كان أثينا في طريق عودته يفكر بشماتة:

«ليس كل هذا سوى البداية...»

❖ ❖ ❖

أثار المنظر شفقة الآلهة الأخرى، وأثار إضافة إلى الشفقة لدى بعضها الرغبة في اللهو مع أثينا، بينما حرك لدى البعض الآخر نزعة مكبوتة للتمرد، وإن لم يكن التمرد إلا على أثينا أحد الآلهة لا سيدها، لا كتمرد بروميثيوس على زيوس العظيم!!

ديونيس كان الأقل قدرة على التحكم برغبته العارمة في المرح وفي مناكفة أثينا، مع الخمر الإلهية التي قلبت موازين الطاعة والاحترام بين الآلهة في رأسه... لهذا تسلل مترنحاً إلى القرية المنكوبة كي...

❖ ❖ ❖

كانت عيناها قد تحولتا إلى كتلتي دم نازفتين بالدمع، دون أن تملك السيطرة على أمواج حزنها العاتية... شعرت أن حياتها قد صارت ركاماً من المزق المكدسة في طريق يدوسه الغادون والراجعون... شعرت أن كل ما صنعته مذ فتحت عينيها لتلمح الضياء المبرقش بألوان زرعت أجمل ما فيها في خيوطها المبدعة، قد تحول إلى هباء لا يمكن حتى للشاخصين نحوه أن يلمحوه!! شعرت بأنها ما عادت قادرة على تحمل العيش مع هذا الخواء...

مسحت دموعها وتناولت بقايا سهرها الطويل وإنهاكها لتنسل من كل مزقة قماش قطعة من خيط غزلته بنفسها وتعرف كل لحظة من حياته، ثم راحت تربط قطع الخيطان ببعضها البعض وقد بدأت الفكرة في رأسها تترابط كخيطانها المقطعة...

❖ ❖ ❖

لم يستطع أحد أيضاً في هذه المرة أن يمنعها من الخروج، ولم يجرؤ أحد أيضاً في هذه المرة على اللحاق بها، فقد ظنوا أنها تقصد الجبل لتحدي الآلهة مرة أخرى، لكنها قصدت شجرة الزيتون الخالدة عند نهاية القرية، حيث تسلقت الشجرة وربطت خيطها بإحكام بأحد أغصانها ثم ربطت الطرف الآخر منه حول عنقها، وراحت تتأمل التراب الذي لن يحتضن جسدها حياً بعد الآن... ومع اندفاع موجة حزن جديدة نحو روحها دفعت جسدها الذي كان مستقراً فوق غصن ليسقط نحو الأرض في رحلة أرادت أن لا يكون لها وصول...

ديونيس باغته المشهد... لن تنتهي رحلته هذه النهاية المفجعة وهو الذي كان يظن أنه قد جاء ينشد المرح، فقرر التدخل...

كانت قد شعرت بنصل الخيط يحز عنقها ويكبح جماح جسدها المتلهف للتراب، فتفجرت فزعاً ورغبت في أن تشهق لتعب هواء الأرض كله، لكن الهواء الذي تشوق للنفاذ إلى رئتيها الصغيرتين أخفق في تحطيم الحواجز التي وضعتها رغبتها في الموت، فتململ سخطاً حتى اهتزت الشجرة وتساقط الكثير من أوراقها... لكن التعبير عن الحزن لم يكن قادراً يوماً على إعادة الراحلين...

في لحظة واحدة تحول ضياء الدنيا إلى حفنة من عتم ملأت عينيها، وانتفض جسدها في محاولة يائسة للتشبث بالحياة، لكن الحياة تحولت إلى فراشة تحوم حول جسدها الجميل المعلق دون أن تحط عليه...

أراكن تأخرت...لم يسمع أحد صوتها تعلن تحديها للآلهة، ولم يسمع أحد زمجرة الآلهة القادمة لمعاقبتها... البعض شعر بالقلق على أراكن الجميلة، والبعض الآخر شعر بالقلق على القرية، ومنهم من شعر بالقلق على نفسه فقط، لكنهم جميعاً أطلوا برؤوسهم من خلف أبوابهم الموصدة، ثم تجرؤوا وخرجوا للوقوف أمامها للنظر نحو الجبل حيث يمكن أن تكون أراكن، وتسلل الأطفال للعب خارج البيوت بعد أن تراخت القبضة المحكمة حولهم، ليعود بعضهم إلى القرية بنبأ جمع أهل القرية كلهم حول شجرة الزيتون الخالدة...

كان أحد أكبر أغصانها العصية على الكسر مكسوراً وملقى على الأرض كجثة هامدة، وقد رُبط به بإحكام خيط من خيوط أراكن التي لا يمكن لأحد أن يخطئ في معرفتها، وقد كان الطرف الآخر للخيط مربوطاً كفم مفتوح لمشنقة عليه آثار دم لا زال طازجاً!!

أمـا أراكـن فقـد اختفـت... جـالوا بأنظـارهم حـول المكان... نادوها... بكى الكثيرون... وتسللت الشماتة إلى قلوب الكثيرين... وشعر العديد بالارتياح لاختفاء مصدر مـن مـصادر المتاعـب مـع الآلهـة... لكـن الجميـع توزعـوا للبحث عنها، دون جدوى، إلى أن توصل أذكياؤهم إلى أن أثينا الغاضب اختطفها ليلقنها درساً، وإلى أنها لن تعود أبداً...

الـذكاء الـذي قـاد إلـى تلـك التفسيرات كـان ذكـاء بـشرياً عـاجزاً عـن تجـاوز أنـوف البـشر، فقـد اعتمـد علـى المقـدمات التي رآها فقط، دون أن يحسب حساباً لما لم يره... وما لم يره كان ذا شأن كبير!!

ففي مكان بعيد، كان إله يحوم قلقاً حول جسد فتاة فاتنة، منتظراً أن تفتح عينيها كي تتلاشى جبال القلق الرابـضة في قلبـه!.. وأخيـراً تفتحـت نجمتـان في الوجـه البهي، وتلفتتا لتشهدا مكاناً لم ترياه من قبل... شعرت أراكن بـالخوف وهـي تنظـر إلـى الصخور الكبيـرة المحيطـة بها وتتحسس الجرح الذي خلّفه خيط صنعته بيدها في

عنقها الجميل... شعرت بالتعب وهي تنهض، وأحست بيد حانية تحيط بها وتدرأ عنها ألماً وخوفاً عاتيين، لكنها لم تر حتى بعد وقوفها إلا الصخور التي حجبت عنها رؤية ما وراءها...

- أين أنا؟!!

وخطت بضع خطوات واهنة...

- ما الذي أتى بي إلى هنا؟!!

عندها سمعت صوتاً عميقاً يخاطبها:

- لا تخافي يا أراكن...

تولاها الذعر وهي تتخيل قبضة أثينا تحيق بها...

- من؟! من يكلمني؟!!

- أنا ديونيس... فلا تخشي شيئاً...

في اللحظة التي سمعت فيها اسماً مغايراً لاسم أثينا شعرت بالاطمئنان، وغزاها الترقب لمعرفة السبب الذي دفع إلهاً إلى مخاطبتها، وهي المغضوب عليها من أحد الآلهة، والمهددة بالعذاب الأليم على يديه...

لم تصدق أذنيها عندما علمت أن ديونيس سيهبها الفرصة للحياة، لا بأن يمنعها من الانتحار أو يبعدها عن براثن أثينا المتوعدة، بل بأن تعود إلى الغزل والحياكة...

- ولكن... هل سيتركني أثينا وشأني؟! ألن يمزق ما سأصنع؟!

وبثقة الآلهة أتاها صوت هامس محفوفاً بموجة دفء غزت جسدها:

- لن يتمكن من هذا ما دمت معك... فقط قومي بما آمرك به...

الغريب:

كانت المعركة على وشك أن تندلع حين اختطفتني الغيبوبة...

❖ ❖ ❖

فتحت عيني ليصعقني الضياء الذي لم أعرفه منذ ولدت!!

«إذاً فهذه هي الشمس! وهذا هو الضوء!!»

لم أستطع لدقائق أن أرى شيئاً... لم أكن أتوقع أن يكون الضوء مؤلماً إلى هذا الحد! كان مداهماً عنيداً، اضطرني للدفاع بيدي عن نفسي كمن يتقي ضربة موجعة...

أنهضتني عدة أيدٍ لم أتبين وجوه أصحابها إلا بعد أن تمكنت بصعوبة من فتح عينيّ والتطلع فيما حولي...

كنت في مكان غريب بين أشخاص غرباء... والأغرب أنهم كانوا من العالم الذي كان يستحيل علي بلوغه، لوجود هذه الـ... وتذكرت...

رفعت يدي إلى عنقي وتحسستها، وتحسست رأسي خلف أذني حيث ينبغي أن تكون... إنها غير موجودة!! بل وكل هؤلاء المحيطين بي يفتقدونها!!

«ما الذي جرى لي؟! كيف جئت إلى هنا؟!»

ودفعت صوتي نحو المحيطين بي:

- أين أنا؟!

وجاءتني أسئلتهم بلهجة كانت مختلفة عما ألفته، فاستوعبتها بصعوبة:

- هل أنت بخير؟ هل نحملك إلى المستشفى؟

عندها شعرت بأنني متعب، بل منهك... كأنني قطعت رحلة طويلة استغرقتني آلاف الأعوام!! وشعرت بدوار يغزو رأسي، لكنني تحاملت كي ألقي سؤالي:

- أين أراكن؟! أين أراكن؟!

وتلفّتّ حولي، ثم خطوت في محاولة للانطلاق بحثاً عنها، لكنني سقطت ثانية...

❖ ❖ ❖

واستيقظت بعد مدة لم أستطع تقديرها في مكان جديد... في غرفة واسعة مفروشة بالضياء، وبالألوان التي أثارت عينيّ حتى أصابتني بالصداع...

«لا بد أنهم اقتادوني إلى هنا لانتظار قتلي!»

ورحت أنظر من نافذة مرتفعة يسد أفقها قضبان حديدية، إلى طرق كان يستحيل علي رؤيتها قبل اليوم، وإلى أناس غرباء...

«هل يُعقل أنني أصبت بالجنون؟! أين مدينتي؟! وأين الضباب؟! وأين أراكن؟!»

وتذكرت حلماً داهمني ذات يوم ولم يكن حلماً، فتساءلت بتوجس:

«أأكون الآن في حلم أيضاً؟!»

كانوا يعاملونني بمنتهى اللطف، ويحاولون استدراجي للإجابة على أسئلة بدت لي ساذجة:

- من أنت؟ من أين أتيت؟!

لكنني تعمدت الصمت مكابرة وتحدياً لهؤلاء الذين لم أعرف كيف وصلت إليهم، أو كيف وصلوا إلي! إلى أن شعرت بالملل... وفي محاولة للمشاكسة قلت لهم أنني أريد الخروج، فأجابوني على غير ما توقعت بأن علي الانتظار... فأنا متعب...

- أفأستطيع الخروج فعلاً؟! وإلى متى أبقى هنا إذاً؟!

فأكدوا ثانية أنني أستطيع الخروج، ولكن يجب أن أبقى إلى أن أرتاح وأهدأ ويتعرفوا إلى شخصيتي!

عندها قلت لهم أنني «جبل» وأنني من مدينة الغلاصم، فاستولت عليهم دهشة قرروا على إثرها استبقائي لفترة أخرى. أنا الذي أردت بما قلت أن أسرّع في خروجي!

ومرت عدة أيام تناولت خلالها العديد من الأدوية التي أكدوا لي أنها ستساعدني وستعجل في خلاصي من هنا، وتكررت زيارات أناس منهم إلي، ليطرحوا الأسئلة ذاتها، وعندما كنت أجيبهم بالإجابات ذاتها كانوا يهزون رؤوسهم ويمضون... عندها قررت أن لا أكلم أحداً وأن لا أجيب على أسئلة أحد... قررت الاعتصام بالصمت، علّ صمتي يكشف لهم ما عجز كلامي عن كشفه، وخطرت لي طريقة أتذرع بها لصدهم عني...

❖ ❖ ❖

طلبت أوراقاً وأقلاماً... تصورت وأنا أطلبها أنني أطلب المستحيل... أطلب إدخال شعلة إلى خزان وقود، أو ذئب إلى حظيرة أغنام... خصوصاً عند تصوري لهم كسجانين ولنفسي كسجين قد لا يرى بعد هذا المكان إلا العالم السفلي، رغم كل المحاولات التي بذلوها لطمأنتي...

أردت فقط أن أظهر العناد واللامبالاة بكل ما يقررون... لكنني فوجئت... نُقل الطلب الذي تصورته أرعناً إلى من يملكون القرار، وعادت الموافقة مع الأوراق والأقلام...

شعرت أن حلماً بالجنة قد تحقق وأنا في خضم الجحيم، فها أنا مع ما طلبت في غرفة مجهزة أحسن تجهيز للكتابة، وكأنهم لا يريدون قتلي، بل يريدون قتل عنادي!!

ووجدتني حائراً أمام صفاقة البياض حيرة مراهق في حضور تجربة الحب الأولى! فما الذي يمكن أن أكتبه وما لي من قارئ سواي، ومالي من صديق أرسل إليه بما سأكتب؟!! لكنني قررت أن أكتب فقط كي أقتل الوقت الذي كاد بمروره الثقيل أن يقتلني...

كانت كلمة الصباح تعني وقتاً محصوراً بين مكانين مختلفين يتخذهما عقرب في ساعة مضادة للرطوبة! ففي مدينة لا ترى الشمس لا يميز بين الصباح والمساء والنهار والليل إلا مسير متهالك لعقربين أحمقين...

أعوام كثيرة مضت، قبل الحادثة التي أشعلت جنوني، وأنا أقرر في صباح كل يوم أن أكتب مذكراتي، ثم أنسى هذا القرار بعد دخولي معمعة الحياة... وكأن السيرة الذاتية لا يمكن أن تُكتب أثناء الحياة، بل بعد الموت حتماً، حين لا يبقى ما يمكن أن تضيفه إليها بعد انتهائك من كتابتها!! وكم من مرة ابتسمت أمام بلاهة هذه الفكرة... أن تكتب بعد موتك قصة حياتك... والآن

أشعر أن الوقت قد حان، فها أنا لا تفصلني عن الموت إلا الكتابة عن الحياة، وكأن الكتابة غدت وأنا هنا الحد الفاصل بين الموت والحياة!! ثم أن حياتي كانت خالية ولزمن طويل مما يستحق أن يُكتب، وعندما صار فيها ما يستحق صار هو نفسه يمنعني من الكتابة لانشغالي المجنون به!!

استندت إلى مقعد مريح وأنا أتذكر أسرّة الوحل التي مضى زمن طويل وأنا أستلقي فوقها بعد احتراق بيتي، ورحت أبحث في ركام الأحداث المختلط بركام الضباب عما يمكن أن أكتبه الآن عن حياتي... ووجدت الكثير مما قد لا يراه قارئ – إن وجد طريقه إلى قارئ – سوى رواية خيالية، وقد يسميه لفرط إغراقه في الوهم كذبة ذاتية أردت بها أن أنسى ذاتي، وقد يسميه لفرط ابتعاده عن الذات سيرة موضوعية لأحداث أشعر أنني لم أكن فيها إلا لعبة تتقاذفها أيد خفية!! وبما أنني على ثقة من أن أحداً لن يقرأ كل هذا ولن يتعب ذهنه في البحث عن اسم لكل هذا، فقد قررت أن أكتب فقط... أن أكتب حياتي كما عشتها وكما رأيتها...

ربما كانت بداية هذه الحياة قبل ميلادي، منذ العصور التي غرقت فيها مدينتنا في الضباب...

كيف حصل هذا؟!! لم يعرف أحد حتى الآن... لكن المدينة وجدت نفسها يوماً بعد يوم تغرق في الضباب... وانتظر الناس... أولئك الناس في ذاك العصر، والذين كانوا آخر من رأى الجبال المحيطة بالمدينة عن بعد، وآخر من رأى النجوم وآخر من رأى القمر والشمس!! فالشمس والقمر صارا بقعتي زيت متفشيتين على قماش السماء، والنجوم صارت أسطورة تتناقلها الأجيال دون أن تراها، أما الجبل فلم يعد إلا أرضاً تتعب في الصعود إليها دون أن تدرك أبعادها إذا ما ابتعدت عنها... كأنك أحد المكفوفين الذين أرادوا تحسس كائن كان يدعى الفيل للتعرف على شكله!!

ظن البعض أن اللعنة حلت بالمدينة حين انقاد أهلها خلف ملذاتهم، وكأن همّ الآلهة منع البشر من ملذاتهم! وظن البعض الآخر أن اللعنة سببها مدّ البشر لأبصارهم نحو مكانة الآلهة التي لا يحق إلا للآلهة تبوؤها، مما استوجب وضع ما يحول دون مدها... وقدم كلّ تفسيره مستعيناً بالآلهة أو بالطبيعة أو بالفساد الذي عم المدينة، إلا أن التفسيرات النهائية استعصت استعصاء طرد الضباب من المدينة التي نسيت اسمها الأصلي لتصير مدينة الضباب...

وظل الزمن يأتي بما لا تتوقعه العقول... فللخيال مهما اتسع حدوده التي لا يعجز الواقع عن تجاوزها! فقد ظلت كثافة الضباب تزداد وتزداد إلى أن اختفت بقع الزيت المتفشية في سماء المدينة، وغمرها الظلام الأبيض... حتى صارت أسماك البحيرات والأنهار القريبة من المدينة تتجرأ على الخروج من مياهها، ثم على التجول في طرقات المدينة، بعد أن تطاولت زعانفها لتكون كافية لدفعها!!

في البداية كانت صدمة لمن رآها، فقد تراكض الأولاد خلف الأسماك في الشوارع، وسرت الشائعة في طول المدينة وعرضها حتى تضخمت السمكة لتصبح قرشاً ثم حوتاً دفع بالناس لإغلاق أبوابهم أياماً إثر ذلك النبأ! لكن تكرر تلك الحادثة بل واستمرارها جعلها تبدو عادية، فصارت السمكة في الشارع كما كانت القطة أو العصفورة، لا تثير دهشة أحد من المارة...

ربما كانت هذه التطورات سبباً في ضعف الدهشة التي كان يمكن أن تكون عملاقة أمام الحدث التالي...

ملبومينا:

مأساة الضباب بدأت بنجاة أراكن... كأن نجاتها وجه عملة في مقابل عينيها، والمأساة هي الوجه الآخر في مقابل عيون المدينة التي نالت اسم مأساتها حتى قبل أن تدرك عمقها...

- إليك المغزل والنول وكل أدوات الحياكة و«سناراتها» وأبرها، فاصنعي بها ما شئت يا أراكن...

تقافزت الفرحة في صدرها وهي تلمس بأناملها كل ما ظنت أنها لن تلمسه بعد أن صار إله حانق حائلاً بينها وبينه، وتلفتت حولها وكأنها تنظر في عيني الإله:

- ولكنني بحاجة إلى الصوف والحرير و...

- ما عدت بحاجة إلى كل هذا... تناولي المغزل فقط واعملي...

انتابتها الحيرة أمام أمر بدا لها بلا معنى، لكن ثقتها بمنقذها دفعت يدها لتناول المغزل والبدء بإدارته وكأنها تحوّل الصوف إلى خيوط ستصنع منها أروع الأثواب... ولشد ما كانت دهشتها عظيمة عندما لمحت خيطاً أبيض واهياً يتسلل عبر المغزل الخالي...

- لم تخيّبي ظني يا أراكن...

ترددت قبل أن تطرح سؤالها:

- كيف؟! وما هذا؟!

- لقد بلغت مهارتك حداً استطعت معه تحويل رطوبة الهواء إلى خيوط ضبابية، فاصنعي بهذه الخيوط كل ما شئت، وستكون لك الملجأ الأمين بعد أن صارت خيوطك الحريرية حبلاً لمشنقتك...

وأحست بأنها ترى هذا الإله كغيمة من دفء وأمن تحيط بها، وهي تحقق عبره أعظم أمنياتها وتفر من انتقام ما كان لأحد أن يفر منه لولا اليد الحانية التي أحاطتها بعنايتها...

تستطيعين انتقاء أي مكان كي تعيشي فيه، وستصنعين [illegible] الماهرة ملجأك الأمين الذي سيقيك من عيون الآلهة

الباحثة عن الانتقام... أما إذا تسلل أحدهم إليك فسأكون قريباً بما يكفي لإنقاذك... لكن...

دوماً للآلهة شروطها...

«إياك أن تنظر إلى الوراء كي لا تعود حبيبتك إلى العالم السفلي وتتحول أنت إلى حجر...»

فلماذا لا يكون لديونيس شروطه؟! لماذا لا يكون للخمر وللهو شروطه؟! الخمر التي جعلت إلهاً يتمنى لو كان بشراً، كي ينعم فقط بحب تلك الحسناء المغرمة بالحياكة...

- لكن... لدي شرط واحد...

- ما دمت ستمتلك القدرة على المضي في الغزل والحياكة، فأنا مستعدة لأي شرط...

- كي تظلي حية للأبد عليك أن تظلي عذراء للأبد...

تلاطمت أمواج الحيرة والخجل والترقب والتردد في نفسها، وقفز إلى لسانها أول خاطر خطر لها:

- موافقة...

وانتقت مدينة تتخفى فيها عن عيون الآلهة وعيون الناس، وراحت تعب من زلال الحياة التي انتقتها لنفسها بغزل خيوط الهواء وحياكة الضباب الذي راح ينتشر وينتشر حتى غطى المدينة التي بدأت به في عيش حياة جديدة...

المجنون:

استمرار الضباب في التزايد دفع بعض الناس إلى هجر المدينة إلى المدن الأخرى، بل دفعهم إلى الهروب منها، بينما ظل فيها العاجزون عن الهروب أو الرحيل! فقد صار الهروب حكراً على الأقوياء بعد أن كان حكراً على الضعفاء... من يملك مالاً وقوة تؤهله للعيش في أي مكان، ومن لا يملك جذوراً تشبثه بهذا المكان وجد طريقاً للهروب، أما المتمسكون بأمل انفراج الكرب فقد ظلوا يلاحقون سراباً يتوارى خلف ضباب... وانتشرت الأمراض التي سببتها الرطوبة العالية، ومات الكثير من الأطفال والشيوخ الذين لم تتحمل رئاتهم ثقل الهواء الرطب، إلى أن كانت حادثة الأسماك ثم الحادثة التي تلتها فتناقلتها الألسن حتى تجاوزت حدود المدينة المغمورة إلى المدن المجاورة فالبعيدة فالأبعد، حتى صار الخبر عالمياً رغم ضعف وسائل الاتصال في ذاك الزمان!..

« وُلد في المدينة طفل ليس مكتملاً فحسب، بل زائد الأعضاء أيضاً!!»

فقد كان يحمل خلف أذنيه وتحتها غلاصم سميكة انفتحت مع صرخته الأولى لتعب الأكسجين من الماء مساندة لأنفه ورئتيه!!

كان يمكن أن تصير هذه الحادثة حادثة عابرة لولا تكرارها على مر السنين ثم القرون حتى صار الطفل الطبيعي هو الطفل ذو الغلاصم، فقد حكمت الرطوبة المتزايدة عاماً إثر عام على كل المولودين بدون الغلاصم بالموت المحتم...

لم تقم الطبيعة وحدها بإجراء التعديلات المتناسبة مع الحياة الجديدة في المدينة، بل قام البشر أيضاً بتعديل الكثير مما كانوا يرفضون تعديله... فاللعبة المجنونة التي أتوا بها من خارج ضبابهم والمسماة بكرة القدم جعلوا أبعاد ملاعبها أصغر بكثير مما هي عليه في الخارج كي يتمكنوا من رؤية الكرة وملاحقتها، وجعلوا عدد لاعبيها أقل بموافقة استثنائية من السلطات المختصة في الخارج، والتي كانت على ثقة بأن ما يجري داخل مدينة الضباب شبيه بما يجري في العالم السفلي، لا يحمل أي تأثير على العالم العلوي!! لكن الملاعب بازدياد الضباب ظلت تصغر وتصغر حتى ألغيت!!

وحاول الناس مع تقدم التقنية في الخارج حمل اختراع خاص بهم أتاهم من الخارج، أسموه بالمصابيح المضادة للضباب، لكن فعالية هذه المصابيح التي أتت في مراحل متقدمة من تكثف الضباب كانت ضعيفة جداً، بل واستمرت في التناقص حتى ألقى حاملوها بها في حاويات المهملات التاريخية...

كل مصنوعاتهم أو المصنوعات المخصصة لهم صارت يجب أن تطلى بمواد عازلة للرطوبة، بل بمواد مضادة للماء، وإلا فإن التلف السريع سيكون مصيرها...

صار أهل المدينة يصفرون أثناء سيرهم في الشوارع كي لا يصطدموا ببعضهم البعض، وعلقوا على كل زاوية في شارع لافتة مصنوعة من معدن مضاد للصدأ كُتب عليها اسم المكان ورُسمت عليها عدة أسهم للدلالة على أماكن وطرقات أخرى، كي لا يضيعوا وهم يقصدون منازلهم أو أعمالهم... حتى لغة البشر في المدينة صارت لغة مائية ضبابية!!

ووُلدت أنا... طفلاً قابلاً للحياة، يحمل الغلاصم اللازمة للاستمرار حياً في المدينة التي فرض عليها ظرفها عزلة خانقة... فقد صار الناس من خارجها يخشون الاختناق إذا دخلوها، وصار الناس من داخلها يخشون

الاختناق إذا غادروها، لتصبح مثل جزيرة تبحث السفن عن خيالها البعيد، لا لتقصدها بل لتغير طريقها هرباً منها... ولأحمل مع الغلاصم اسماً أثقلني أبي بكتلته التي لم ترقَ رغم ضخامتها إلى حجم الحلم الذي كان يحمله... «جبل»... بل أحد الأقانيم التي صارت رؤيتها أو حتى تخيلها حلماً عصياً على التحقيق...

وكبرت ككل الأطفال في مدينة الغلاصم... سمعت من جدتي حكاية المدينة مئات المرات دون أن أملّ من طلب إعادتها لأعرف المزيد وأسأل عن المزيد، ولأحرجها أمام أسئلة كانت تعجز عن الإجابة عليها...

- لماذا استولى الضباب على مدينتنا؟!

- ألا يحمل الناس في المدن الأخرى غلاصم مثل هذه يا جدتي؟! كيف يتنفسون إذاً؟!

- هل رأيت الجبل يا جدتي؟! هل رأيت الشمس؟! كيف يمكن أن يبدوَا؟!

وكانت تبتعد لتلوذ خلف الضباب الكثيف، ربما لأنها جارتني في حديث لم تشهد أحداثه، بل وصلها كما وصلني عبر جدتها التي لم تجبها - يوم كان الفضول يجتاحها - عن أي من أسئلتها...

وكنت أسأل نفسي:

«ترى أيهما أهم بالنسبة لنا: الرئتان أم الغلاصم؟!»

وأحاول أن أوقف عمل إحداهما لأكتشف إن كنت سأموت اختناقاً بدونها، لكنني لم أجرؤ يوماً على إكمال تجربتي، لأنني لا يمكن أن أموت مرتين لأقارن بين سرعة الموتين وألميهما!!

وكبرت ككل الأولاد... يغمرني أمل في أن أخرج يوماً من هذه المدينة لأرى العالم خلف الضباب!! وعندما كنت أعبّر عن أملي في انزياح الضباب نهائياً من المدينة كنت أواجَه بفزع المحيطين من أن يموتوا اختناقاً، وبقمع لتعبيري عن أمنيتي، وكأن حديثنا عن أمنياتنا هو تحقيق لها!! إضافة إلى ذكرى ما حصل مع والدي ذات يوم، والتي لم يستطع أحد أن ينساها أو أن ينسى نتيجتها...

وكان يمكن لحياتي أن تظل غير ذات معنى لولا أحداث سقطت كجلمود صخر من علٍ هزت المدينة وهزتني معها...

كان الضباب قد أمسى كابوساً... حتى أحلامنا الجميلة تغدو كوابيس إذا ما تكررت إلى الحد الذي نعجز فيه عن أن

نطردها من رؤوسنا... ومن خضم هذا الكابوس جاء نبأ وقع صاعقة على رؤوس الناس...

وُلد طفل ثم طفل ثم طفل، وأثبتت الفحوصات عليهم أنهم لا يرون...

الدهشة ذاتها التي غزت الناس في الداخل غزت الناس المختلفين في الخارج:

«مدينة الضباب... مدينة الغلاصم... تنذر بتحولها إلى مدينة المكفوفين!!»

«كارثة جديدة تهدد مدينة الغلاصم، فقد ظهرت أولى النذر بفقدان أهلها للبصر!!»

لكن ما قيمة ما تنشره جريدة يعجز الكتّاب فيها تماماً كالأطباء وكل من يمكنهم تقديم مساعدة ما، عن زيارة المدينة لرؤية ما حصل، ويفضلون أخذ المعلومات عند الحدود الفاصلة بين الضباب الخانق والضباب الجميل؟!

وسرى الخبر كالنار بين البيوت، فراحت الحوامل يتحسسن بطونهن علهنّ يُطمئِنّ أنفسهن على عيون الأجنة الشاخصة نحو الحياة التي خبأت الكثير من تفاصيلها خلف الرداء المائي المعلق في الهواء...

صار الخوف كبيراً من أن تتكرر قصة الغلاصم معكوسة، فقد احتاجوا لعضو جديد يساعدهم على التنفس وحصلوا عليه، أما الآن فقد رأت الطبيعة أنهم ما عادوا بحاجة إلى البصر فقررت إلغاءه من حياتهم... وها قد بدأت بالمحاولات الأولى!!

فضولي كان قد تحول مع الزمن إلى مستعمرة إسفنجية متشعبة اجتاحت كل خلاياي حتى تحولت إلى أرق يومي:

«لماذا يحصل كل هذا؟! لماذا مدينتنا بالذات؟!»

وانبثق من خضم تلاطمه في نفسي شوق، بل توق إلى معرفة ما يجول هناك، خارج هذه الخيمة الضبابية الشريرة، وإلى رؤية ما سمعنا به دون أن نتمكن حتى من تخيله إلا على شكل ضباب مختلف الحجم أو مختلف اللون!!

وجاءني خبر العينين الملغيتين مرعباً... فجر في نفسي ثورة لم أعهد عنفها فيّ من قبل... تخيلت سكان هذه المدينة مسوخاً بغلاصم وبلا عيون... تصورت أولادي أو أحفادي إذا ما قُدّر لي إنجابهم وقد غزاهم الفضول حتى لرؤية الضباب الذي كان السبب فيما آلوا إليه وفيما ألنا إليه من قبلهم... تخيلت أجيالاً تالية تأتي بأطراف أقرب إلى الزعانف منها إلى الأيدي أو الأقدام، وشعرت أننا أصبحنا مختبراً حياً للا...ا

الطبيعي... بل وصرت أتصور أيضاً أن الطبيعة تخطط لجعلنا بشراً مائيين كما فعلت بالحيتان ذات يوم، وتصورت أن عودتنا إلى الماء بعد مئات أو آلاف السنين هي سبب كل ما يجري لنا الآن!! واختلط الأمر في رأسي الحائر...

«متى كان السبب لاحقاً للنتيجة؟!»

وتضخمت تساؤلاتي، بل تعملقت:

«ما الذي يمكننا فعله؟! كيف نستطيع منع هذا الخراب من غزو أجسادنا التي باتت مهددة بالتحول إلى أجساد أسماك هشة؟!...»

وقصدت من قد يعرف الإجابة...

... اقترب مني كثيراً ليراني عبر نظارات سميكة وعبر الضباب الكثيف المحيط بنا، فرأيت وجهه بوضوح أكبر... ذقناً مستدقة نما شعرها عبر إهمال طويل، وأنفاً ضخماً يكاد يخفي الشارب الكث تحته، وصلعاً يتوسط كتلتين من الشعر المهمل، وغلاصم داكنة الحمرة سريعة الانفتاح والانغلاق، وشفتين غليظتين متناسبتين مع حجم الأنف راحتا تشرحان، وقد مال الفم كله نحو الجهة اليمنى في ابتسامة مكبوتة:

- عضو لم يعد ذا أهمية سيزول... وها أنت ترى أننا لا نرى أبعد من سنتيمترات قليلة من أنوفنا، وإذا أردت، كما أتوقع، أن تسألني عن الحل، فهو في إيجاد ما ينشّط أعيننا، أو بالأحرى أعين الآتين من بعدنا، ويدفعها إلى التوقد والعمل حتى في ظروف الضباب الخانق هذه...

طفت الحيرة على سطح وجهي فالتقطها بعينيه الملونتين بلون سماء لم نرها، فتابع شرحه:

- كي تعمل العينان بشكل جيد ينبغي أن تبدأا عملهما منذ الدقائق الأولى للولادة، ليبدأ الدماغ بدوره بتنسيق ما تريانه وتفسيره، أما إذا تأخر هذا العمل فستعجز العينان عن الرؤية وسيعجز الدماغ إن رأتا عن تفسير ما تريان، وبالتالي ستكون الرؤية كعدمها... أضف إلى ذلك أن الناس باتوا عاجزين عن استعمال أعينهم حتى وهي تعمل على أفضل شكل! لأن الضباب يحجب عنهم ما يجب أن يروا... وإذا اختفت هذه العيون فأنا متأكد من أنهم سيطورون طرقاً جديدة للتعامل مع محيطهم، أما باستمرار وجودها فسيبقون متكلين على عجزها الذي سيقودهم إلى العجز أكثر فأكثر...

لست من قوله تشجيعه لحدوث هذا، أو على الأقل عدم ممانعته له، لكنني لم أستطع أن أقبل معه هذا التهاوي الذي سنؤول إليه...

وطفت على المدينة موجة لم تكن مألوفة حتى بوجود الضباب، ولكنها ظلت على كل حال موجة لم تتنبه بها المدينة إلى المد القادم...

«فلنترك الأعين التي تطل على الخارج، كي نطل عبر عيون بصيرتنا على دواخلنا التي تفوق الخارج في اتساعها وتعقيدها وجمالها وقبحها!..»

أفهكذا بكل بساطة نتراخى أمام الحدث ونهرب منه إلى تلميع حالنا الجديد؟! متى كانت العيون حاجزاً أمام رؤيتنا لدواخلنا؟! وإن كنتَ على ثقة من أن داخلك في اتساع الخارج، فكيف ستكتشف اتساع الخارج ما لم تملك عينين تستطيع بهما رؤيته؟! ألسنا بما نقول كمن يُهدم بيته فيصيح فرحاً: «وما همني؟! أستطيع أن أنام على الرصيف!!»؟!

أما أنا فلا أستطيع النوم على الرصيف ما دمت أملك منزلاً يمكنني الحؤول دون هدمه...

«يمكنني؟!!»

كيف يمكنني؟! ورحت أتلظى...

كيفما قلّبت أمري كنت أعود إلى النور... النور الذي يدفع العيون المتكاسلة إلى العمل النشط... إلى الإبصار... إلى أن تظل عيوناً تمكننا من أن نبقى بشراً... ولكن من أين يأتي النور ونحن غارقون في هذا الليل المائي؟! فقد أكل الزمن بمروره قدرات المواقد والفوانيس على إنتاج النور... حتى الكهرباء التي أتتنا من الخارج، والتي كانت أسطورة بالنسبة لنا بقدراتها الخارقة على صناعة الضوء،غدت عندنا عقيمة لا نفع فيها...

وخطر لي جنون يشبه الفكرة...

النور تصنعه النار... فلا بد لي من نار... نار كبيرة متوهجة دائمة! ولكن من أين لي بها؟!

ألم يخبرونا عن الشمس؟! الشمس الموجودة هناك خارج حبسنا! ألم يقولوا أنها كرة نارية متوهجة دوماً؟! لماذا إذاً لا أصنع شمساً هنا في الداخل؟! سيكون لأولئك الذين في الخارج شمسهم ولنا هنا في الداخل شمسنا!..

لكن كيف نصنع شمساً؟! والشمس كما يقولون عالية في السماء العالية!! كيف تكون السماء العالية؟! وعلى كل حال، إذا كانت السماء هي الفسحة التي تستطيع أن ترى فيها شيئاً فوقك، فإن السماء عندنا ملتصقة برؤوسنا، وبشكل أكثر فجاجة أقول أنها ملتصقة بالأرض!! لهذا أعتقد أن شمسنا يمكن أن تكون ملتصقة بالأرض وفي كبد السماء كما يقولون في نفس الوقت...

كانت النار الملتهبة في صدري كفيلة بإمداد شمس مدينتنا بالطاقة دهراً، لكنها كانت عاجزة عن تجاوز هذا الصدر... فكم تحبطنا أجسادنا القزمة عندما تكون العقبة في وجه أحلامنا العملاقة!! تماماً كما كان جسد أبي عائقاً أمام استمرار عيشه في حلمه الكبير...

«إن كان لا بد من النار، فلتكن النار...»

جمعت كل ما استطاعت يداي الوصول إليه مما يمكن أن يحترق... أخشاباً عاثت الرطوبة فيها، وهي كل ما كنا نعرفه عن الأشجار، وأوراقاً صُممت في الخارج لمدينتنا خصيصاً، ووقوداً كان للإضاءة ولم يعد يجدي، وثياباً بالية، ونفايات...

استغرقني جمع كل هذا وقتاً طويلاً وصبراً على تهكم وسخرية من عرفوا بأمري رغم أنني كنت أفعل ما أفعل من أجلهم... ورغم أنني حاولت أن أفتح عيونهم على ما كان يعتمل في رأسي وفي صدري، لكنهم أبوا إلا أن يكدسوا الضباب في عقولهم أيضاً...

شعرت أن الفسحة المجاورة لمنزلي لم تعد تتسع للمزيد من وقودي الشمسي، وأنني صرت عاجزاً عن أن أجد المزيد من ذاك الوقود بعد أن جمعت كل ما وقع في يدي منه، فاتخذت قراراً بإيقاد الشمس...

كل من استطعت الوصول إليهم أخبرتهم عن تلك اللحظة التي آمنت أنها ستغير تاريخ المدينة، ودعوتهم ليشهدوا بداية الزمن الجديد... بداية الزمن الذي سيستطيع فيه أطفالنا أن يروا الشمس... شمسهم هم... الشمس التي سيتمنى أهل الخارج أن يروها كما نتمنى نحن أهل الداخل أن نرى شمسهم... الشمس التي ستجبر الانتقاء الطبيعي على التراجع عن قراره بحرماننا من عيوننا... من الجزء الذي لا زال يحلم فينا...

وحضر الكثيرون... خصوصاً بعد أن أصبح خبر جنوني إشاعة يسعد بنقلها من صار السماع نشاطهم الأكثر أهمية بعد أن

خبا الإبصار وذوى... تسللوا من كل مكان في المدينة، مصطدمين بالجدران أو بأحجار الطريق أو ببعضهم بعضاً، مستعينين باللافتات المضاءة المشيرة إلى أسماء الشوارع واتجاهاتها...

خرجت من منزلي قبيل الساعة التي حددتها لانطلاق الحدث العظيم، أتحسس طريقي بيديّ وبذاكرتي نحو ركام الضياء الذي أنشده... فاصطدمت بالعديدين... ثم ضيّقت الأجساد المكتظة الطريق علي، حتى صار يتوجب علي أن أخاطبهم ليسمحوا لي بالتقدم:

- أفسحوا لي طريقاً إذا سمحتم...

وجاء اكتشاف أحدهم:

- من؟! أهذا أنت؟!

ثم رفع صوته ليُعلم الجميع:

- ها قد أتى جبل... ها قد أتى جبل...

وانتشرت موجة من الهمس ومن الصراخ:

- هيا يا بطل... أرنا ما ستفعل...

دون أن يفكر أحدهم ولو من باب المشاكسة بإشعال تلة الوقود التي أعددتها! كأنهم كانوا واثقين من فشلي فأرادوا أن يكون الخزي لي وحدي...

أخيراً وصلت... دلني اصطدام قدمي بحافة الكومة على وصولي... مددت يدي إلى جيبي لإخراج أعواد الثقاب المقاومة للرطوبة منها... تلاطم الموج في قلبي، وشعرت بجحوظ العيون من حولي مما ضيّق المكان على أنفاسي... حاولت إشعال عود ثقاب لكن الارتباك أفشل محاولتي الأولى، فرميته...

«عود الثقاب الذي سيشعل الشمس يجب أن يكون بشجاعة الشمس التي ستخترق كل هذا الضباب...»

كررت المحاولة... بدا لي وهج العود المشتعل بعيداً جداً... أملاً يلوّح بمنديل تمنيت أن يكون منديل لقاء لا منديل وداع... شعرت باقتراب النار من أصابعي، فألقيت بالشعلة الصغيرة على بعد متر من يدي كي تلد شعلة أردت لها أن تكون دائمة التوقد...

تحركت النار في البدء بهدوء ولطف لا يوحي بأنها نار... كانت تبدو من خلال أستار الضباب باهتة وباردة، إلا أنها بعد دقائق راحت تنفث غضباً وصخباً... تحركت السعادة في قلبي وشعرت بحركة الجموع من حولي تحاول الابتعاد عن متناول ألسنة الشمس التي صنعتها... بل رأيت جانباً من هذا الجمع ما كان لي أن أراه لولا هذه الشمس التي صرخت صرخة الجنين الأولى...

«إذاً فقد فعلت الشمس فعلها...»

وراح قلبي يهتف:

«مزيداً من النار أيتها الشمس كي أراهم جميعاً... كي يروني جميعاً...»

كل العيون التي لمحتُها كانت ترقب النار... العينان الوحيدتان اللتان توجهتا بعيداً عنها، بالاتجاه المعاكس لها، كانتا عينيّ أنا...فحلمي كان في العيون لا في النار...

قفزت فرحاً...

- نجحت... نجحت... ها أنا أراكم...

ولمحت مع استعار الشمس التماع السعادة في العيون الشاخصة، فأيقنت عندها:

«إذاً فقد أتوا لأنهم يحملون حلمي ذاته، ويأملون أن تنجح خطتي رغم جنونها!!»

ملبومينا:

أراكن عاشت من جديد... بأن شغلت حياتها الأبدية بالغزل والحياكة...

كانت بين البشر وبعيداً عنهم، فكانت بهذا أسعدهم... فالقرب منهم كان يؤنسها، والبعد عنهم كان يحفظها من شرورهم... وكانت بين الآلهة وبعيداً عنهم أيضاً... فكانت بهذا أشد شعوراً بالأمن، من أن تكون بينهم فتطحنها صراعاتهم الأزلية، أو أن تكون بعيدة عنهم فتصير عرضة لانتقام غاضبيهم وحاقديهم...

كانت تترك حياكتها أحياناً، يدفعها الإرهاق أو الرغبة في تفحص أقمشتها الضبابية، فتنزل للتمشي في شوارع المدينة التي راحت شيئاً فشيئاً ترتدي الحلة المصنوعة من خيوط الهواء بيدي الحائكة التي لا زال في نفسها ثقة من أنها إذا ما تنافست حتى مع أثينا فسوف تهزمه...

وكانت تشعر مع كل حدث يغير اسم المدينة أو حياتها بنشوة حزينة، فقد كانت تحس بفيض الألم الذي كان أهل المدينة الطيبة يحسونه مع تراكم صناعتها في مدينتهم، ومع قفز الأسماك إلى شوارعهم، ومع ظهور الغلاصم على أجسادهم... ولكنها كانت في الوقت ذاته تشعر بقوتها، وبقدرتها على صناعة ما يمكن أن يغير حياة الكثيرين، وكانت تشعر أيضاً أن التغيرات - وإن كانت متباعدة بالنسبة إلى زمن البشر - فهي بالنسبة إلى زمنها اللامتناهي متلاصقة إلى الحد الذي يبعد عن نفسها الملل ويزرع فيها توقاً إلى تغير جديد...

إلى أن كان يوم شعرت فيه بأن خبراً ما يشق طريقه في ضبابها رغم كثافته، مما يدل على ضخامته وقوته... فتركت أدواتها المعلقة في ما كان يوماً سماء المدينة، والمثبتة على فروع كرمة خفية من مشيئة ديونيس، ونزلت تستجلي سر الغزو الجديد لخبر جديد...

«مجنون يعلن أنه سيصنع شمساً...»

ترددت هذه العبارة عشرات المرات على مسامعها، وكأنها العبارة الوحيدة المتداولة في تلك المدينة!..

«كيف سيصنع شمساً؟! أعتقد أن الأمر يستحق المشاهدة...»

وللمرة الأولى منذ زمن سحيق حشرت جسدها بين أجساد أهل المدينة المتجمعين حول ركام قد يصير شمساً... لم يرها أحد رغم ملامستها لأجسادهم وكأنها منهم، فقد بدوا ذاهلين بانتظار شمسهم التي أعلنوا سخريتهم منها... ولمحت عبر شفافية الخيوط التي حاكتها بنفسها عيني ذاك المجنون... قاصرتين عن رؤية جسد يبعد عنهما خطوة واحدة، لكن حالمتين برؤية المدى البعيد...

أشعل عود الثقاب الأول فتوقفت الأنفاس حولها، وكأن العود المنطفئ سحب هواء المدينة ليترك الرئات والغلاصم دون جدوى... ثم كان عود الثقاب الثاني، وشهقة جماعية مع ارتمائه على بقعة وقود هبت مستعرة في العيون والقلوب...

وفي قلبها اشتعلت نار لم تعرف قبل ذاك اليوم طعماً لها... فقد كان الأمل المتوقد في عيون مجنون المدينة، لا عود ثقاب فحسب، بل شمساً بعثت الضياء في أعماقها السحيقة...

الحالم:

مدى يضيّقه الضباب... حلم ينقلب في أوج جماله إلى كابوس... عيون ينحسر نورها... نار تخمد... هكذا كانت سعادتي بالشمس التي صنعتها، حين راحت ألسنة اللهب تخبو...

لمحت بداية خبوّها في عيون المتجمعين حولها... بدا أنهم صدموا باحتراق الحلم فأدرت ظهري لهم لأرى الحلم الذي بنيته لهم يهوي إلى شيخوخته... تفجرتُ ألماً...

«لا تنطفئي... خذي النيران من قلبي واستعري... خذي توهج أحلامي واتقدي...»

ورحت أنتحب...

❖ ❖ ❖

لم أصدق أن كل هذا جرى لي... كنت جسداً يحمل آثار النار أمام ركام وجريدة يحملان أثرها أيضاً... ركام لم

أستطع رؤيته لكنني كنت واثقاً أنه كان بيتي منذ أيام فقط، وجريدة كتبت الخبر ببرود الموتى...

للمرة الخمسين بعد استيقاظي من غيبوبتي النارية قرّبت الجريدة من عينيّ إلى حد الالتصاق...

«مجنون في مدينة الضباب يدعي أنه سيصنع شمساً للمدينة، ويقوم بإحراق كومة من النفايات... ثم ومع انفجار نوبة جنونه يحرق منزله ويحاول إحراق المنازل المحيطة به... وعندما حاول الناس منعه ألقى بنفسه في النار...»

وللمرة الخمسين كدت أضحك أو كدت أبكي... اختلط الأمر علي... فقد تحولت في لحظة إلى متشرد مجنون، وتحولت أحلامي الكبيرة إلى رماد...

ذرعت طرقات المدينة جيئة وذهاباً... ما أعرفه منها وما لا أعرفه... من كان يصطدم بي ويراني كان يولي الأدبار هارباً خوفاً من نوبة نارية تطاله ألسنتها... بينما كنت أرى الجميع بعينَي مخيلتي يدبون في ظلامهم خانعين!!

كنت أنام في الأماكن التي قيل لنا أنها كانت غابات ذات يوم، قبل أن تفتقد الضياء إلى حد الموت... كانت

مستنقعات واسعة من الوحل الضحل، تتخللها صخور راحت تكسوها مع الزمن أشنيات وطحالب كانت تقصدها في بعض الأحيان الأسماك الزاحفة لتتغذى بها... ورغم البرد القارس الذي كنت أعانيه، كنت أشعر بدفء غريب يلف جسدي، وكنت أسمع أنفاساً تتسلل عبر خلاياي لتمنحني الطمأنينة، ولتشعرني أنني لست وحيداً... إلى أن كان يوم...

لم أعرف يوماً الأشجار... فقد انقرضت من مدينتنا منذ زمن طويل، فكنت طوال عمري أتخيلها إلى أن وجدت نفسي فجأة بين جثثها الواقفة... كانت أخشاباً مما اعتدنا رؤيته كأثاث مرسَل إلينا من العالم الآخر، لكنها كانت ملونة بالحزن! يتفرع الكبير منها إلى مزيد من الأحزان الواخزة...

وفي مكان ربما كان بعيداً، أو ربما جعله الضباب - الذي كان شفافاً على غير عادته - بعيداً، لمحت ظلاً يختبئ خلف شجرة... خفتُ... لكن الضباب الذي انفرج أمام خطوتي دفعني للتوجه نحو ذاك الظل... غادر مكانه

وأسرع باتجاه شجرة أخرى، واختفى... أسرعتُ... ففي هذا الخواء قد أجد شخصاً أحدثه دون أن يهرب مني أو من جنوني... قد أجد شخصاً لا يعرف بجنوني فيبادلني عبارات ودودة طيبة... قد أجد شخصاً لا يخافني...

- انتظرني... لا تخف...

تحرك الظل إلى شجرة أخرى بخفة أدهشتني، بل زادت دهشتي التي توقدت عندما أيقنت أن ذاك الظل كان لفتاة ملتفة بالبياض...

- توقفي... أرجوك...

كنت قد اقتربت من الشجرة حين أطلت من خلفها بابتسامة مرتبكة ثم فرت من جديد! لم أصدق أنني لمحت كل ذاك الجمال! وتمنيت لو أنني أستطيع وصفه لأهل مدينة الضباب المساكين، كي يعرفوا حقاً أي مغزى لوجود عيونهم!!

فجأة راحت جثث الأشجار تتحول واحدة تلو الأخرى إلى مرايا... لكنها لم تكن تعكس إلا صورة تلك الفتاة، وقد أخذت ترقص بثوبها الأبيض على إيقاع مجنون سمعتُه فقط عبر جسدها! سعدت لأنني صرت أستطيع أن أراها

في كل اتجاه بعد أن كانت ظلاً هارباً، لكنني اكتشفت أنها عادت ظلاً هارباً أشد إيلاماً بسبب تعدد الوهم أو تعدد الأمل الذي يبثه...

كانت صورتها تبدو لي متصاعدة مع لحن متصاعد... أقترب منها لألمسها فأجدها مرآة باردة، ثم أتحول إلى غيرها من صور راقصة وقد ملأني أمل في أن تكون حقيقة، لأغرق في المزيد من الوهم... وراح الجنون يتكاثف في رأسي مع كل اصطدام لي بمرآة باردة، حتى انتهيت إلى قرار لا يُبقي إلا الجسد الحي عندما تتكسر كل المرايا... فاندفعت باتجاه أقرب مرآة تحمل صورتها، لأضربها بكل الإحباط المتجمع في روحي كي تتحطم وتحطم معها جدار النوم الذي كان يفصلني عن واقع الضباب...

كان جسدي مثقلاً بآثار النوم على الصخور الرطبة...

«هل كان هذا حلماً؟!!»

حركت رأسي كمن يحاول النظر حوله... لم أرَ شيئاً... كنت أتمنى أن يتكرر الحلم خلال يقظتي، لكن الأمنيات أحلام أيضاً مع أن استيقاظنا منها أكثر صعوبة...

أردت النهوض كي أكسّر التعب الرابض في عضلاتي... استندت بيديّ على الأرض، فصرختُ مع صرخة الألم فيهما، وسقطت على الأرض ثانية بعنف الألم الذي أصابني... ثم قرّبت يديّ من عينيّ لأجد جراحاً خلّفها زجاج مرايا لا زال عالقاً بدمائي اللزجة المختلطة بالوحل اللزج!!

«ألم يكن حلماً؟! ألم تكن تلك الجميلة محض وهم؟! فأين هي إذاً؟!»

نهضت مترنحاً ورحت أبحث عنها حيث لا يشف الضباب ولا أثر لجثث الأشجار الواقفة...

ملبومينا:

يومها... أراكن رأت في ذاك المجنون نفسها في تحديها للآلهة، ثم رأت في دموعه أمام خبو شمسه دموعها أمام قماشها الممزق بيدي أثينا... ثم رأته يحرق بيته فلمحت نفسها تنسل من قماشها الممزق خيط خلاصها... ثم انقضّت على جسده المحترق تنقذه مع آخرين كما أنقذها إله ذات يوم... لكن ما لم تدركه ساعتها اشتراكها مع ذاك الإله في سبب الإنقاذ لشخص غدت على ثقة من أن جنونه يشبه جنونها...

بعد تلك الحادثة صارت تطيل تركها لنولها وغزلها، لتسير خلف تشرده المعذب في طرقات قماشها الكثيف... شعرت أنها اكتشفت جزءاً جديداً من حياتها... ربما كان غائباً، وربما كان كامناً... شعرت أن كل ما صنعته من خيوط الهواء في هذه المدينة كان طريقاً لإيصالها إلى هذه

اللحظات... كان مخططاً ذا غاية واحدة... إيقاع ذاك الرجل في الجنون الذي سيفتح عينيها على المزيد من الحياة!!

❖ ❖ ❖

أثينا الذي حُرم من لذة الانتقام مزقه الغضب... على فتاة تمكنت من الفرار، وعلى إله ساعدها على الفرار... ولأن صراعاً معلناً بينه وبين ذاك الإله ما كان ليجر عليه إلا المزيد من المتاعب، أو ربما الهزائم، فقد قرر أن يحارب ذاك الثمل اللاهي بسلاحه ذاته... بتلك الفتاة التي غدت جرحه واحتمال شفائه...

ترك عالم الآلهة مرات، وجال في أرجاء ذاك الكون الضاج باحثاً عن أي أثر لها، متمنياً أن تهمس لو همسة واحدة كي يستدل بها على مكانها... حتى الجبال والوديان التي كان على ثقة من أن مخلوقة بمثل هشاشتها أو بمثل رقتها — كما كان يتجنب أن يقول أو يفكر — لن تكون قادرة على الاختباء فيها ولو لساعات فقط، فتش فيها... إلى أن ساقت تلميحاتُ آلهةٍ لم تكن متعاطفة معه بقدر ما كانت ناقمة على القدرة التي امتلكها ديونيس، والتي كانوا

عاجزين عن امتلاكها، بصره عبر إطلالة مشرفة، نحو تلك المدينة المغلفة بالضباب...

«لا بد من أن تكون هنا... أكاد أسمع نبض قلبها الصغير... أكاد أشم رائحة أناملها على كل ذرة من هواء تلك المدينة...»

لكنه لم يكن الوحيد المطل على تلك المدينة... تلك المدينة التي غدت، ومذ سكنتها تلك الفتاة، مزاراً خاطفاً للعديد من الآلهة الذين كانوا يتوقون إلى صناعة قصة تمردهم الخاصة بهم، دون أن يجرؤوا، والذين كانوا حريصين كل الحرص على أن يبقى ملجأ أراكن آمناً من براثن أثينا...

❖ ❖ ❖

مورفيوس هز ديونيس بزئيره الإلهي:

- أثينا اهتدى إلى مدينتك المخبأة...

لكن الخمرة حولت هزة الرعب التي أرادها مورفيوس إلى رقصة ساخرة:

- أثينا؟! إنه طفل عاجز...

- أفق أيها المجنون وأنقذ فتاتك...

ملأت الكلمة الإله الثمل بالغرور:

- ها أنت تقول فتاتي... فتاتي... فكيف سيجرؤ على الاقتراب منها؟!

عندها غادره مورفيوس وقد أدرك أن محاولاته لن يلازمها إلا الفشل...

- أراكن...

التفتت وقد شعرت بالخوف لسماعها همسة لم تعهدها من قبل:

- مَن...

كان الإله القلق قد بحث عنها طويلاً قبل أن يجدها جالسة قرب متشرد مجنون نائم تتأمل قسمات وجهه المتألمة...

- أنا مورفيوس يا أراكن...

فوجئت للاسم الجديد الذي غزا سمعها، وتمنت أن يعطيها تفسيراً قبل أن تقتلها الرعشة القلقة...

- جئت كي أنقذك من أثينا...

صعقها الاسم... أثينا؟! الآن؟! بعد أن صارت حياتها متوهجة بمعنى جديد؟! بعد أن وجدت ما يلون خيوطها؟! ما يحول خيوط الهواء بين يديها إلى خيوط ضياء؟!

ثم أضاف الإله أمام ذهولها:

- لا تخشي شيئاً... فما دمت معك لن أسمح لأثينا بأن يجدك... سأخبئك حيث لا يمكنه التسلل أبداً...

وشعرت بكف حانية تدفعها لتلج حلم متشرد مجنون نائم...

❖ ❖ ❖

أثينا جاب المدينة كلها... لم يترك زاوية أو بيتاً... لم يترك رصيفاً أو ذكرى غابة... فقد كان متأكداً من أنه على مبعدة خطوات من أراكن... من عدوته التي جلبت عليه قوة ضعفه... وقد ثبّت يقينه بقربها نبتة ديونيس العملاقة وما تعلق بها من أدوات لا يمكن لبشر سوى تلك الأراكن أن يستخدمها...

فكر للحظات أن يقتلع نبتة المشيئة الثملة من جذورها، وأن يحطم تلك الأدوات العابثة به شر تحطيم، لكنه عدل عن فعل سيدخله في صراعات جديدة لا زال في غنى عنها...

إضافة إلى أن ضعفه في مواجهة تلك الفتاة ذات يوم كانت فيه في متناول يده، ثم عجزه عن الوصول إلى مخبئها، أفقده الثقة في قدرته على مواجهة كائن طيني مثلها، فهل يمكنه مواجهة إله يعادله قوة وعظمة؟!! بل إله يزيد عنه بقوة السكْر التي تُفقده الخوف والتردد حتى أمام رب الأرباب زيوس... ثم أنه كان على ثقة من أن القلاع الإلهية الحامية لهزيمته لم تعد حكراً على ديونيس، فقد ألقى العديد من الآلهة على مسامعه ما يؤكد له أنهم متعاطفون مع تلك الفتاة ومع مشاكسة ديونيس، وأنهم سيتدخلون لمنعه من إيذائها إذا تمكن منها ذات يوم!!

❖ ❖ ❖

أنهى أثينا جولته الخائبة في مدينة الغلاصم، وقفل راجعاً ليجمّع في كيس خيبته المزيد من العزم على إيجاد أراكن، بينما تكسرت المرايا في حلم رجل نائم لتطلق امرأة هاربة من مخبئها...

❖ ❖ ❖

كان إنقاذ مورفيوس لأراكن فاتحة لحلف جديد بينه وبين ديونيس... حلف كان قائماً بين معظم الآلهة الناقمة منذ

اللحظة التي اعتلت فيها أراكن ذاك الجبل، كي تعلن تحديها لأثينا... لكنه كان حلفاً متوارياً خلف تعاطف زائف مع إله غاضب ونقمة مُدّعاة على فتاة مشاكسة!!

ديونيس استولت عليه الخيبة لشعوره بأن المغامرة لم تعد ملكاً له وحده، ومع هذا لم يرغب في إنهائها، لأن نهايتها تعني نهاية أراكن... لهذا قبل باليد الممدودة له من إله الأحلام، وقد أدرك أن الخمر ذاتها هي أداة قوته وهي أداة ضعفه!! فبقوتها بدأ قصته وبضعفها كادت أن تنتهي القصة لولا تدخل خشي أن تكون أسبابه المضمرة هي ذات الأسباب المضمرة لتدخله في نفس القصة عند بدايتها...

❖ ❖ ❖

- هل خفت يا أراكن؟

وتذكرت تلاطم مشاعرها حين خاطبها ذاك الصوت الغريب، فأجابت:

- كثيراً... لكنني هدأت حين سمعت اسم الإله الذي خاطبني، فقد ملأني تشجيعه بالطمأنينة...

وخزت العبارة ديونيس، لكنه لم يجد بداً من إبداء الشكر:

- فالشكر إذاً لمورفيوس...

ترددت للحظات ثم أضافت وكأنها تتابع غزل الخيط ذاته:

- ولذاك الرجل الذي خبأني مورفيوس في حلمه...

وعندما لم تسمع تعليقاً من ديونيس حاولت أن تُلبس عبارتها ثوب المنطق:

- فقد كان طيباً جداً معي...

وتذكرت عينيه التواقتين لنظرة من عينيها، وجنونه أمام الإخفاق في لمسها، ثم تذكرت قصته مع شمسه، فأضافت:

- ألا تستطيع مساعدته من أجلي؟! فقد صرتُ مدينة له...

وسرت رعشة صوتها في أوصال الإله الذي أتته الطعنة من حيث لم يحتسب... أفلم يخش على أراكن من مورفيوس؟! الإله الذي يعادله قوة وعظمة؟! أفتأتيه المنافسة الآن من مخلوق طيني هزيل؟!

راودته فكرة أن يذكرها بالشرط المبرم بينهما كي يستمر في حمايتها، لكن ذاك الشرط الدال على قوته إزاءها هو

نفسه الدليل على ضعفه ومذلته!! وراح يقارن بين جبروت خمر وشرط في بداية قصة مشتعلة، وبين عجزهما في مرحلة من رماد...

أراكن شعرت أن الصمت تضخم فوق سؤالها، وحسبت أن ديونيس تركها ومضى، فألحت مستعطفة:

- من أجلي يا ديونيس... ألا تساعده؟!

أخرجه صوتها من كهف الصدمة الذي دخله بصوتها ذاته، وبسؤالها ذاته أيضاً...

- وكيف أساعده؟

شعرت أن طرح هذا السؤال يدل على إمكان هذه المساعدة، فاندفعت ابتسامة إلى عينيها وشفتيها من أعماقها، دافعة معها عبارة متحمسة:

- إنه يريد شمساً... شمساً ينقذ بها مدينته مما جلبته أنا عليها من ويل...

وسمعت صوت الإله المكسو بالخيبة يقول مبتعداً:

- سنرى... سنرى...

محاولات أثينا للقبض على أراكن لم تفتر... فسرعان ما كان يعاود ولوج تلك المدينة بعد كل خيبة يُمنى بها ليمنى بخيبة جديدة، وليزداد إصراراً على أن يجدها قبل الخيبة القادمة...

ومورفيوس لم يكل عن إنقاذها بالطريقة ذاتها بعد أن أشرع له ديونيس طريقاً من صمته وحزنه اللذين ما كانا يليقان بإله للخمر والمرح...

وأراكن – عبْر مورفيوس – كانت تلج أحلام ذاك الرجل المزينة بالشموس والمرايا، لتلمس شوقه إليها ولهفته للمسها أو مخاطبتها، كي يخرج بعد كل حلم محملاً بجروح صارت تتعدى يديه وجسده إلى قلبه وروحه...

الوارث:

ذاك الحلم... مزيداً من الجنون إن كنتُ مجنوناً حقاً... مزيداً من التمرد إن كنت متمرداً حقاً... مزيداً من الحلم بعيون لا زالت قادرة على الرؤية... بقلوب لا زالت قادرة على الرؤيا...

كنت ممتلئاً بالأحلام الكبيرة إلى الدرجة التي صرت مهدداً فيها بالانفجار في أية لحظة! كنت أفضّل الانفجار على التخلي عن أحلامي حيث لن أستطيع العثور عليها ثانية...

فشلي في الموت أمام شمسي الخامدة كان معادلاً لفشلي في الاحتفاظ بتوقدها، ومعادلاً لفشلي في لمس تلك الجنية التي اقتحمت أحلامي من حيث لا أدري... فشلي كان معادلاً فقط لفشلي!! فما من مقياس يمكن أن يوازن بين فشلي وسواه دون أن يتحطم... دون أن يغدو فشلاً في حد ذاته...

ورحت أفكر في طريقة جديدة أو في فشل جديد لن يزيد على فشلي القديم شيئاً، فاللانهايات لا تُزاد!! وتذكرت سؤالاً كان طفولياً قبل أن أكبر ويكبر معي ليصبح جنونياً:

«هل السماء بعيدة؟!!»

نعم... تلك السماء التي تحمل الشمس، ألا يمكن أن أصلها لأقتطع من شمسها ما يُقيت عيون مدينتي بالنور؟! وهل أستطيع حتى الوصول إلى حيث يمكنني أن أراها فقط، قبل أن أفكر في الوصول إليها حيث هي؟!

وعاد أبي... عادت لي صورته منهمكاً في حلم حققه للحظات عادلت حياته كلها... عادت إلي حكاية جدتي الباكية عن حلمه الذي ورثتُه أو عن جنونه الذي ورثته أو عن موته الذي قد أرثه...

«البشر في الخارج يغوصون في الماء بأن يُنزلوا هواءهم الضروري لرئاتهم معهم... فلماذا لا أغوص في الضوء بأن أحمل بعض ضبابي معي؟!»

ولأننا — ومنذ زمن طويل قبل تلك الفكرة — لم نعد أقرب إلى البشر من الأسماك أو البرمائيات، ولأن وسيلة حمل الضباب التي اخترعها لم تنجح إلا لدقائق بعد ولوجه إلى ذاك العالم، فقد مات مختنقاً بحلم حققه للحظات فقط... لكنه ورغم الضباب السرمدي المخيم مات سعيداً برؤية الشمس والسماء والجبل...

أبي أغلق بوابة الأحلام خلفه ومضى... تاركاً كل من يحلم بالحياة هناك يفضّل الحياة هنا، لأن مصيره هناك صار معروفاً، بل مجرّباً، ومن سيجرب المجرَّب؟!

أما الناس هناك، والذين فيهم من ينتمي بسلالته إلينا ممن هجروا المدينة هرباً من مصير وصلناه نحن ونجوا منه، فقد نسوا أمرنا... أقصى ما كانوا يستطيعون تأمينه لنا كان طعاماً وأدوات تصلح للاستعمال فقط عندنا... أما أن يفكروا بمساعدتنا على زيارة عالمهم، فذاك ما كان مشطوباً من دفاتر اختراعاتهم وأفكارهم...

هل كانوا حريصين على حياتنا فرفضوا تعريضنا للخطر عبر تجارب قد تفشل؟! أم كانوا حريصين على عالمهم الذي لا يريدون لكائنات غدت غريبة مثلنا أن تغزوه؟!

❖ ❖ ❖

وقررت...

«سأجد وسيلة توصلني للشمس!! أو سأجد وسيلة تمكننا من أن نخرج الأطفال إلى عالم الشمس ذاك، حتى يملؤوا عيونهم بالضياء الذي سيقيتها بقية حياتهم!! وقد أدبّر إيصال النور إلى المدينة بالأنابيب!! وقد... وقد...»

وكان يخطر لي أحياناً أن أرث موت أبي كما ورثت حلمه وجنونه...

« سأقف عند حدود المدينة... عند طرف الجسر الفاصل بين الضباب وبين الضياء... سأعبئ غلاصمي بما يكفيني من ماء، وأفتح رئتيّ إلى الحد الذي يبقيني حياً إلى أن أبلغ

السعادة التي أريدها، لأعيشها لحظة واحدة فقط، ثم لأعود أنفاساً خامدة وروحاً سعيدة خالدة...

❖ ❖ ❖

صحوتي كانت عذاباً بين كل هذه الأفكار، وغفوتي كانت عذاباً في حلم مزقني بين جثث أشجار وحطام مرايا لا تترك أثراً لامرأة كنت متأكداً أنها لا تنتمي إلى عالم الضباب ولا إلى العالم الآخر...

إلى أن صحوت يوماً لأجد نفسي في قعر بئر من جثث الأشجار الواقفة حولي، قريبة جداً إلى الحد الذي منعني من التحرك... وصورها لي استلقائي وغياب قممها في الضباب طويلة إلى الحد الذي سأعجز معه عن أن أتجاوزها لأصير ثانية خارج ذاك البئر...

ازدردت لعابي وألقيت بكفيّ، الداميتين كالعادة عند كل استيقاظ، كي أنهض؛ فتحركتْ على غير عادتها في الحلم...

" أما زلتُ نائماً؟! هل تفشى الحلم على يقظتي أيضاً؟!"

نهضت فتبددت مزق الحلم التي غطت مع الضباب عينيّ، لأكتشف مع سماعي لأصوات عديدة أنني كنت محاطاً بالعديد من أهل مدينتي الذين أعلنوا بقدومهم إلي جنونهم أيضاً...

❖ ❖ ❖

ملبومينا:

المدينة التي صارت أسطورة لدى العالم خارجها، كما صار العالم خارجها أسطورة لديها، انقسمت... لم تعد كتلة واحدة يشدها الضباب عنوة... صارت مدناً متعددة، وكل منها يشدها ضبابها الخاص، وعنوة أيضاً... منذ ذلك اليوم الذي أعلن فيه رجل يدعى جبل جنونه أو تمرده...

لم يكن ذاك الإعلان رعداً فجر فطور الأفكار في عقول الناس، أو قنبلة حطمت جدراناً ما اعترتها هزة ولم تعانِ تشققاً من قبل... فما صار في المدينة كان فيها!! لكنه كان أقل وضوحاً وأقل جنوناً، وأقل قدرة على التعبير...

❖ ❖ ❖

ففكرة الإطلال على الداخل ظلت قائمة منذ انبثقت، أو منذ بدا أنها انبثقت عند ميلاد عدة أطفال عاجزين عن الرؤية؛ لكنها تعززت بفشل تجربة الشمس التي حاول مجنون

المدينة صناعتها، بل وانضم إليها العديد ممن شهدوا الخيبة أمام النيران المتخامدة ليعلنوا استغناءهم عن عيون المستقبل، وبالغ آخرون فقرروا إغماض عيونهم التي لا زالت صالحة للعمل منذ الآن، لمشاركة المستقبل في مآسيه!!

هذه الفكرة بالنسبة إلى جبل كانت خطرة بسبب استسلامها لأمر مفروض، لكن ما كان أخطر منها بالنسبة له هو نفس الفكرة، لكن مع طموح لاستغلالها شر استغلال... فالبعض ممن شدتهم نفوسهم إلى اقتحام بيوت الناس لسرقة أغراضهم وأموالهم، والبعض ممن كانت مواقعهم تخولهم للاستيلاء على ما يقدم للمدينة من عالم الخارج من مساعدة ودعم، وجدوا في العيون العمياء خير مساعد لهم، فراحوا يروجون فلسفتها مع فلاسفتها دون أن يتجاوزوا كونهم محتالين أو سارقين...

تلك الفكرة دعمتها فكرة أخرى، لا تختلف عنها في نتائجها وإن اختلفت عنها في جذورها... فقد كان أصحابها يرون — إذا صح استخدام هذا الفعل بعد اليوم فيما يخص شؤون مدينة الذين لا يرون — كانوا يرون أن قدراتهم المحدودة لن تستطيع منع الطبيعة من العبث كما تشاء بهم!!

فهل استطاعوا منعها من تكديس الضباب؟! بالطبع لا... وهل استطاعوا منعها من زراعة الغلاصم في أجسادهم؟! بالطبع لا... وهل استطاعوا منعها من منعهم من مغادرة المدينة إلى العالم الخارجي ولو لدقائق فقط؟! بالطبع لا... واليوم أيضاً بالطبع لا... لن يستطيعوا منعها من سمل عيون أهل المدينة وتحويلهم إلى متحسسات للطرق بدلاً من ناظرين إليها...

ثم جاء آخرون فأضافوا إلى كل هذا العجز والاستسلام فرحتهم بعالم لا يتألمون فيه كما يتألمون اليوم، وهم يحلمون برؤية شمس أو جبال أو نجوم من العصي أن يروها... نعم ستزول محنة الإبصار التي تسبب لهم محنة الحلم والألم!!

لكن الأفكار المجنونة لم تكن حكراً على رجل واحد من رجال المدينة، أو لم تعد حكراً عليه... فالنار ذاتها التي فجرت كل تلك الأفكار من مكامنها، فجرت لدى الكثيرين جنون الأمل برؤية الشمس والسماء والنجوم والجبال... فقد كانت جذوة هذا الأمل مطمورة تحت رماد الاستسلام والضباب والتجربة الخائبة لمجنون أب لم يعد

إلا جثة هامدة، لكن النار الطامحة لتكون شمساً نجحت في التسلل إلى الجذوة لإيقادها... لنفض رماد الدهور عنها...

❖ ❖ ❖

كل فئة من هؤلاء تعرفوا إلى بعضهم من نبرة الصوت ومن لمسة اليد ومن البريق في العيون القريبة، فلكل حلم بريقه وصوته ولمسته التي يُلبسها لحامله حتى يبدو صاحبه حلماً بحد ذاته...

عرفوا بعضهم فنبذوا غيرهم ومتنوا أواصر التعاون بينهم... كل فئة لتحقق حلمها أو غايتها التي تنكرت في هيئة حلم، فكان أن انضم من دُعوا بالمجانين، بسبب عظمة حلمهم أو خطورته أو حتى جنونه، إلى بعضهم البعض، وقرروا الانضمام إلى ذاك المتشرد في الغابات المنقرضة...

❖ ❖ ❖

كانوا قد بحثوا طويلاً ممسكين بأيدي بعضهم كي لا يضيعوا بعضهم، خاطين بحذر فوق أرض يرون أحجارها بالكاد عند انحنائهم، متماسكين كي لا ينزلقوا فوق رطوبة ترابها المخادعة، محاولين أن يرفعوا نداءهم إلى الحد الذي

يسمع أولهم جنوناً وأكثرهم جنوناً كي يرد نداءهم وينضم إليهم كي يبحثوا معاً عن شمسهم...

لكن ذاك المجنون، في تلك اللحظات، كان مغارة لحلم احتلته أراكن وأوصد أبوابه مورفيوس حتى تأكد من مغادرة أثينا للمدينة! وعندها تركت الجنية مخبأها في رأسه ليفتح عينيه في اللحظة التي كانوا قد وجدوه فتجمعوا حوله وقد غزاهم القلق من أن يكون ميتاً بعد أن عجزوا عن إيقاظه رغم كل تلك النداءات...

❖ ❖ ❖

ديونيس غرق في صمت الآلهة العميق... نسي حتى مرحه وخمره، حتى كاد يتحول إلى إله للصمت والحزن، لكنه لم ينس زيارة أراكن التي ترك أمر حمايتها لمورفيوس وكأنه لم يكن من بدأ القصة ومن خطّ أهم سطورها!!

❖ ❖ ❖

- هل أنت بخير يا أراكن؟

- أنا بخير... أشكرك وأشكر مورفيوس...

وتذكر محادثة سابقة تعدى الشكر فيها الآلهة...

- ألا تشكرين ذاك الرجل أيضاً؟!

شجعها السؤال على الانطلاق في رجاء بدأت حياكة أولى خيوطه سابقاً:

- كنت أريد أن أحدثك في أمره مرة أخرى...

كظم غيظاً اعتراه وسأل:

- لماذا لم تحدثني مورفيوس؟! أليس حاميك الجديد؟!!

شعرت بالتهمة الموارية الموجهة إليها، فدنت خطوة نحو صوت لم يكن له مصدر:

- بل أنت حاميّ منذ اللحظة التي ابتليت بها، لهذا أريدك أن تستمر في حمايتي... حتى مورفيوس أشار علي بالتحدث معك لإيجاد طريقة...

تذكر كل ما تريده، فقاطعها قبل أن تكرره وقبل أن تتجاوز عبارة أراد التوقف عندها:

- تريدينني الاستمرار في حمايتك أم في حماية ذلك الرجل؟!

صمتت... شعرت أنه تسلل إلى أعماقها يريد تمزيق ما حاكته يد العاطفة والأنوثة في داخلها، ففضلت أن يتكرر موتها بيدها على أن يتكرر على يد أثينا جديد:

- إن كنت لا تريد، فلا تفعل... حتى الآلهة لا تستطيع إجبار الآلهة على فعل ما لا تريد... أما نحن البشر الضعفاء، فقد لا نستطيع فعل شيء ما، لكن أحداً لا يستطيع منعنا من فعل ما نريد أن نفعل!..

وكأنه عرف ما فكرت به قبل نطقها لعبارتها المفعمة بالغضب المبطن:

- ما الذي ستفعلينه؟!!

صمتت وقد راحت تفكر في خيط جديد قد يقودها إلى الخلاص...

❖ ❖ ❖

ديونيس جرحه صمتها أكثر من كلامها... فها هي تتحداه صامتة بوحشية أكبر من تحديها الصارخ لأثينا... ها هي تصمت لتقول:

- إذاً فأنا أفضل الموت على العيش في عذاب الشعور بالإثم... نحو تلك المدينة ونحو ذلك المجنون الذي...

طرد ديونيس ذاك النخر الذي استولى على تفكيره، وقفل راجعاً إلى عالم الآلهة قاصداً لقاء مورفيوس...

❖ ❖ ❖

شعر أن العار يرتديه مع كل كلمة فردها أمام مورفيوس، لكنه فضّل هذا على موت أراكن... تلك المرأة التي جعلت لحياة إله لاه معنى جاداً... تلك الفتاة التي جعلته في لحظة أقوى الآلهة وأكثرها قدرة على التحدي والتمرد، ثم جعلته في لحظة أخرى أضعفها وأعجزها حتى عن مقاومة مجنون ضائع في مدينة ضائعة...

- ما الذي أستطيع فعله؟! كيف أهبها شمساً؟!

شعر مورفيوس بعمق الألم الذي يجبر إلهاً على الشكوى، بل على الاعتراف بالعجز، فحاول تخفيف معاناة ذاك المهزوم بعرض شعوره الذي ما كان يختلف إلا بشدةٍ لم تبلغ بعد حد الانهيار:

- لست وحدك من تعاني... فأنا مثلك أشعر بالعجز أمام ذاك الجنون الذي استولى عليها، فجعل حياتها أرخص في نظرها من أن تعاش دون تحقيقه... لكننا لن نعدم الوسيلة...

دبت اللهفة عارمة في صوت ديونيس وهو يسأل:

- كيف؟!!

خفض مورفيوس صوته وهو يشرح لديونيس:

- أكاد أجزم أن كل الآلهة من حولنا يودون لو يستطيعوا مد يد المساعدة لنا، على الرغم من أثينا وتوعداته، ولكنني أقترح أن نلجأ إلى الإله الأكثر قدرة على مساعدتنا، كي لا نزج بهؤلاء في عجز يعادل عجزنا، فنصبح فريقاً من العجزة لا من الآلهة...

لاحت نبرة السخرية في صوت مورفيوس، فتجاهلها ديونيس الذي كان يستعجل وصول مورفيوس إلى إجابة سؤاله:

- ومن هو ذاك الإله؟!!

صمت مورفيوس وكأنه يختبر صبر الإله النافذ، ثم همس كي لا يسمعه إلا ديونيس:

- إنه... إنه... الوحيد الذي تجرأ على تحدي رب الأرباب زيوس...

واستولت الدهشة على ديونيس:

- تعني...

فأجاب مورفيوس محاولاً مقاطعة ديونيس الذي كاد يلفظ الاسم صارخاً:

- نعم... نعم... إنه هو!!!

المطرود من عالم الآلهة... المتشرد بين عوالم لا ينتمي إليها، سعيداً بحياة حققها رغم أنف من يريد أن يظل المسيطر المهيمن... تواقاً للعودة إلى حيث يأخذ المكان الذي يتمناه، مكان زيوس... لم يتدخل في اللعبة أو في المصير الذي كانت تلعبه الآلهة «الصغيرة» مع أثينا وأراكن والمجنون جبل، لكنه كان يراقب كل شيء في خضم تنقله من عالم إلى عالم بحثاً عما يعزز قوته ويشد أزره في معركة تمنى أن تكون قريبة، وتمنى أن تكون نتيجتها كما يطمح...

لم يبحث عن دور في تلك الحكاية، لأنه كان على ثقة من أن الحكاية ستبحث عنه لتعطيه دوراً فيها... فأية حكاية تحمل نفَساً من التمرد والمشاكسة لن تستطيع الاستغناء عنه، هو الذي أوشك أن يصير إله التمرد والمشاكسة بعد أن حمل اسم مشاكسته وتمرده... بروميثيوس إله النار...

كان يطمح إلى ضم إلهين أخرقين إلى صفه، وإلى إخراج إله أضعفه الغضب وأضعفته مواجهته لهما من قائمة الآلهة. كي تزداد قوته بكسبه لهما، ويضعف زيوس بفقدانه لثلاثة من جنوده...

- بحثنا عنك طويلاً...

أجاب بتهكم:

- أعرف...

اهتزت في قلبَي الإلهين نقمة غامضة على إجابة لم يتوقعاها، لكنهما لم يستغرباها من بروميثيوس الذي أضاف:

- كنت أراقبكما... ولو لم أشأ مساعدتكما لما وجدتماني...

كانا يعلمان تماماً أنه الأكثر قدرة على المناورة والهرب، ثم على المواجهة، ما دام قادراً على الهرب من عيون زيوس والاختباء بعيداً عن سطوته، فصدّقا دون مناقشة...

- جئناك نطلب مساعدة...

فقاطع المتحدث:

- بل جئتما تطلبان شد أزر تمردكما...

احتج مورفيوس:

- نحن لسنا متمردين... كنا نلهو فـ...

فقاطعه الإله الواثق ثانية:

- ... فوجدتما نفسيكما متورطين فيما لم تستطيعا الهرب منه...

ثم خيم صمت ثقيل...

- لا عليكما... سأكون معكما... شرط أن تكونا معي حين أحتاجكما...

❖ ❖ ❖

أراكن شعرت بعد محادثتها الأخيرة مع ديونيس أن نهايتها اقتربت، لا لأنه أراد لها النهاية بل لأنها أرادتها لنفسها... فعينا حلم ذاك الرجل ظلتا تطاردانها حتى بعد مغادرتها لحلمه... تتصورهما كما رأتهما أول مرة... يوم الشمس الخامدة... يوم الحلم المحترق... يوم إعلان الجنون...

ولأنها فشلت في مساعدة جبل عن طريق ديونيس فقد قررت أن تنضم إليه... إلى المجانين المحيطين به... أن تبدو له، لكن خارج الحلم، وعلى مرأى من أثينا إن كان يبحث عنها!! فهي أيضاً ستشهر جنونها حتى إن كان هذا الإشهار آخر ما ستفعل!!

❖ ❖ ❖

المنعتق:

مجموعة الحالمين بمستقبل تملؤه العيون المشرقة... مجموعة الذين سموا أنفسهم بالمجانين إمعاناً في السخرية بمن سموهم بهذا الاسم، صاروا أكثر من جنون واحد!! لكن كل جنونهم كان عذاباً فقط دون أن يتحول إلى فعل يغير المصير الذي باتوا يواجهونه من جديد وفي كل يوم...

لكن استمرار العذاب وطول معاناته ومواجهة السخرية بالابتسام أو الضحك كان أقسى على بعض النفوس من الاستسلام، فانسحب أصحابها لينضموا إلى إحدى الفرق الأخرى أو إلى أكثرية الراضين بكل ما يأتيهم من السماء أو من الأرض... من الآلهة أو من البشر...

سعدتُ بهم يحيطون بي ويشدون من أزري... لكنني تعست بهم، لأنهم غدوا مجانين مثلي وارتضوا بهذا، ولأنهم كانوا عاجزين مثلي وارتضوا بهذا أيضاً... ثم وبعد حين لأن ضعف

بعضهم جعلهم ينسحبون... لم أعرف سر شعوري هذا... الحزن عليهم لأنهم كانوا في حال ما أردتها لهم عندما كانوا معي، والحزن عليهم لأنهم تركوا تلك الحال إلى حال أخرى ما أردتها لهم أيضاً!! كأن كل الأشكال التي صرنا نأخذها في هذه المدينة أشكال غير جديرة بالحياة... أشكال جديرة بالحزن فقط...

❖ ❖ ❖

في تلك الآونة غابت تلك المرأة عن أحلامي... كانت فترة قصيرة، لكنها مرت بي أطول من كل سنين العذاب التي عشتها وأنا أراقب أو أفكر في تدهور مصير حياتنا...

صرت أجهد نفسي في التفكير مع من حولي في طريقة للخلاص كي أنسى، فكانت تنبثق من كل فكرة وكل عبارة، كأن الأفكار والعبارات ما كانت إلا جثثاً لأشجار منقرضة...

صرت أطيل السير والتشرد في المدينة، فلربما اصطدمت بها في شارع من شوارعها، لكنني ما كنت أصطدم إلا بالضباب...

صرت ألقي بجسدي في الغابات القاحلة باحثاً عن النوم الذي كان يهديها إلي، فيتمنع ليعذبني أو يأتي... ليعذبني أيضاً بنسيانه للهدية الموعودة...

شعرت بأنني أضعف... أتلاشى... فالقوة التي كان يمدني بها ذاك الوجه وتلك الابتسامة كانت قوة للحياة... للأمل... للضياء... أما الغياب فقد بات ضعفاً وسهماً يشير إلى عبث المحاولة... إلى جدب الأمل...

لا أعرف كيف ترتبط أكبر قضايانا بأصغرها لتتّحد في قضية واحدة، فإذا ما انهار الكبير انهار الصغير، وإذا ما انهار الصغير انهار الكبير!! ولا أعرف أيضاً أية قضية هي قضيتي الكبرى وأيها الصغرى؛ ولكنني وفي خضم يأسي من حلم يقتحم النوم بدأت أيأس من حلم يحتل اليقظة!! حتى مَن حولي شعروا باصطلائي فانقسموا بين مبتعد عني ليأسه من يأسي، وبين متقرب مني يحاول أن يدفعني برقة أو بعنف لأعود كما كنت المجنون الأول، أو المجنون الأكبر... إلى أن ظهرَت...

أخيراً ظهرتْ... لم أصدق... ربما خدعني الضباب... ربما خدعتني عيناي!! أغمضت عينيّ وفتحتهما... فركتهما بكفيّ... بقبضتيّ... حركت يدي أحاول أن أطرد ولو حفنة

من ضباب أمام وجهي، كي أراها أكثر قرباً وأكثر وضوحاً... لكنها كانت تطل بعد كل إغماضة بالابتسامة ذاتها... بكل تلك العذوبة... بكل ذاك الجمال...

واحترت في أمري... هل أنا في خارج الحلم حقاً؟! أم أنني في حلم يصور لي الحلم حقيقة فأنسى الحلم لأبقى في الحقيقة؟!!

- ما بك؟

«هل كان ذاك الصوت صوتها؟! هل كان ذاك النشيد من غنائها؟! وهل هذه الخارجة من الحلم حقيقة؟!!»

وأمام المزيد من دهشتي كررتْ سؤالها:

- ما بك؟!

«لا تسأليني... فقط تكلمي... فقط اقتربي... فأنا لم أصدق بعد أنك هنا...»

وكأنها حدست بما أعاني فاقتربت، ورفعت يداً بازدياد اتضاح اقترابها من وجهي عبر الضباب زاد نبض قلبي حتى كاد يقتلني، ثم ألقت بأناملها التي بدت لي أرق من الضباب ذاته فوق صدغي لتسري في جسدي رعشة من الشك بعالمي

كله وبوجودي فيه... ولأنني أردت الخروج من خضم رهبتي، فقد سألتها كسابح في حلم:

- هل أنت حقيقة؟!!

- وما الذي تشعر به؟!

وسحبت أناملها على وجهي من صدغي حتى ذقني، وكأنها عبرت بي جزر الضياء والألوان لتلقي بي مع إسبال يدها في تلاطم شوق للمسة أخرى أحس بها حقيقية كسابقتها، حتى وإن كانت وهماً أو حلماً... أو حتى موتاً...

لا زلت حتى الآن غير متأكد من أنها كانت معي... فقد شعرت أن فيها شيئاً من الأساطير، وليس أصعب على امرؤ يخنقه واقع ضيق من أن يصدق اتساع الأساطير ورحابتها، فما بالك إذا أتته تلك الأساطير مشخصة مجسدة؟!!

ورغم أنني لم أصدق أن ما عشته كان حقيقة لا حلماً، إلا أنني على ثقة بأنني عشت السعادة بلقاء حلم كان يبدو مستحيلاً... عشت الانعتاق من قبر اليأس إلى فسحة الأمل... الأمل الذي جدّدَتْه بأملها الكبير وبعزمها الكبير...

إذاً فقد كانت مجنونة مثلي... راحت تقاسمني يأسي وأملي... أفكاري وجنوني... وأعادتني إلى من كدت أنسلخ عنهم!

أكدت لي أن الضباب المخيم على المدينة لن يزداد بعد اليوم، دون أن تفسر لي يقيناً طرحته أمام شكوكي... بل وأكدت لي أن ذاك الضباب «سيهترئ» شيئاً فشيئاً، وأمام كلمة رأيتها خارجة على السياق سألتها:

- يهترئ؟!!

فلم توضح لغزاً جديداً، بل أضافت إليه ابتسامتها وقالت:

- وقد نستطيع «تمزيقه» بأنفسنا...

- ماذا تقولين؟!! لقد جربت هذا ولم أنجح...

- نعم... لقد جربت أن تصنع شمساً، لكنني أريد أن تكون لنا تلك الشمس المعلقة في السماء كما هي لهم هناك في الخارج...

ولأنني ما كنت إلا مجنوناً فقد جرتني الفكرة:

- تلك الشمس لن تكون لنا ما دام الضباب رابضاً على صدورنا...

فردت واثقة:

- سنحرقه... حتى إذا اضطررنا لإحراق المدينة...

عجزت رغم كوني عملاق الجنون كما يدّعون عن استيعاب كل هذا الجنون:

- إذا أحرقنا المدينة وزال الضباب أو احترق كما تقولين، فسنبقى دون مدينة...

وتذكرتُ فاستدركت:

- بل لن نبقى، لأننا سنختنق جميعاً، لأن الضباب الذي نعده موتنا هو نفسه حياتنا!! ثم هل يحترق الضباب؟!

أذهلتني ابتسامتها أمام شعوري المفجع باستحالة الحلول:

- أما المدينة فسنبنيها، وأما الضباب فهو أكثر من أن يحترق كله باحتراق المدينة...

وصمتت لحظة وكأنها تحادث نفسها بعبارة لم ترد أن أسمعها، ثم أضافت:

- وأما الشمس فتسللها إلى عيوننا محتوم، لكنه قد لا يكون ضمن فسحة حياتنا...

واختنق صوتها بغصة حزينة، بينما أطرقَت للحظات أشعلت حزني معها، لكنها عادت لتنظر في أعماق عينيّ:

- لهذا سنعجل بالنار تسللَ الشمس إلى عيوننا...

ظننت أن الفكرة لن تجد من يشجعها، لكنهم خيبوا ظنوني، فقد كانوا قد أتوا لمثل هذه الفكرة لا لغيرها... وبدأ التخطيط...

سيقوم البعض بالتجول في المدينة لتحذير أهلها من النار القادمة، وسيتوزع الباقون في أنحاء المدينة مستعدين لإشعالها بكاملها... وانطلق المحذرون:

- يا أهل المدينة... يا أهل مدينة الضباب والغلاصم والمجانين... اتركوا بيوتكم كي تروا الشمس... فنار كبيرة ستلتهم المدينة لتلتهم الضباب معها... وسيكون لكم شمسكم ككل العالم... فاحذروا النار التي ستتقد بعد قليل...

الكثيرون لاقوا الخبر بهزة رأس ساخرة، بينما هز الفزع آخرين فهرعوا خارج منازلهم، والبعض أشهروا رفضهم فتنادوا لإيجاد طريقة تمنع عصبة المجانين من تدمير المدينة، وكان في أولهم، بل وفي قيادتهم، أولئك الذين أرادوا للمدينة أن تغرق في ضبابها وظلامها... وفي عماها...

- هل خرج الجميع من بيوتهم؟!

- ليس الجميع... لكن من لم يخرجه النداء ستخرجه النار...

- فلننطلق إذاً...

وانطلق ركب النار ليتوزع في المدينة كلها، لكن شعلة واحدة لم تنطلق في المدينة كلها؛ فقد أمسك الظلاميون بكل من أشعل عود ثقاب قبل أن يلقيه، وجرّوه إلى حيث يُمنع مع أصحابه من ممارسة الجنون...

- ماذا سنفعل بهم؟؟!

- إنهم مجرد مجانين... فلنطلقهم ونراقبهم جيداً...

- بل فلنبقهم محبوسين تحت أيدينا، لنمنعهم من أي تهور...

ولاحت على وجه أحدهم ابتسامة غادرة لم يرها أحد عبر الضباب الكثيف حين قال:

- بل فلنقتلهم...

وأتت عدة أصوات دهشة:

- نقتلهم؟!!

- لا... لا... لم يرتكبوا ذنباً...

- وهم على كل حال من أهل مدينتنا وجيراننا، وعلينا أن نرفق بهم...

ودون أن يستسلم أضاف:

- ألا يريدون تدمير المدينة؟!! ألا يريدون تشريدنا؟!! ألا يستحق هؤلاء القتل قبل أن يجروا علينا الويل؟!!

فعادت أصوات من مصادر مختلفة:

- إن أرادوا أن يفعلوا، فهم لم يفعلوا... لهذا فهم لا يستحقون القتل...

- نعم... فلنعطهم فرصة أخرى...

وطال الاجتماع والجدال، إلى أن تقرر إطلاق المجانين مع فرض المراقبة عليهم عندما يدخلون المدينة، أو فليبقوا في خارجها... في الأرض التي كانت غابة ذات زمن سحيق...

لكن اقتراح القتل لم يمر دون أن يزرع بذوره في العديد من نفوس المجتمعين...

عاد البعض، بينما فضل الآخرون الهرب من المواجهة الفاشلة... أما أنا فتنازعتني عواصف الألم والإحباط والشعور بالإثم اتجاههم، وقد كنت أول من دفعهم إلى جنونهم...

كانت تلك المرأة المنبثقة من الحلم تجلس قربي، على تراب طافح بالماء اللزج كالهواء الطافح بالضباب الكثيف، وكنت أسمع أنفاسها تتردد في رئتيها حزينة ضائعة متفكرة... في اللقاءات الأولى خشيت عليها الموت اختناقاً دون غلاصم هي شرط لبقائنا في محيط الماء الطائر، لكنها كانت تؤكد لي أنها بخير دائماً...

فجأة شعرتُ أن الضباب تحول إلى صخر ثقيل على أنفاسي وصدري، وسمعت أنفاسها ترتبك، وشعرت بلمسة يدها تتسلل إلى يدي وتضغط... وعبر الضباب لمحت عينيها تجوبان المكان بحثاً عن خطر...

- ما بك يا أراكن؟!!

- لا تتركني... أرجوك...

ودون أن أعرف عما تبحث رحت أبحث عن شيء ما يخيفها، فقد أستطيع حمايتها وطمأنتها...

وكلمح البصر مرت كتلة من نار بالقرب مني لتختطفها من يدي وتغيب...

- أراكن... أراكن... أين أنت؟!!

كان شعوري بيدها الممسكة بي لا يزال حاضراً إلى الحد الذي أشعرني بالعار لأنني لم أتشبث بها لأمنع ذاك اللهيب من اختطافها، أو لأكون معها أينما ذهبت...

ملبومينا:

أثينا الذي لم ييأس، والذي علم بالحال التي آل إليها ديونيس، والذي علم بانشغال مورفيوس بالبحث عن بروميثيوس، وبمفاوضات يجريها الإلهان معه حول ما لم يعرفه، حث تحليقه إلى المدينة المغمورة بالضباب باحثاً عن أراكن...

لم يجدها عند نولها، ولم يجدها في المدينة، ولم يبق أمامه إلا أرض المتشردين جنوناً في سالف الغابات...

هزته الفرحة عندما لمحها من بعيد بعد كل ذاك الغياب والبحث المرير، قريبة من آدمي ممسوخ، وعلى وجهها لمح جمالاً حدّ من اندفاعته الغاضبة للقبض عليها... توقف للحظات وهو يفكر في مدى غباء إله يمكن أن يشوه مثل هذا الجمال وهو الإله الأكثر تقديراً للفن والجمال!! وفي نفسه راحت زهرة خجولة تنمو يرويها ذاك الحسن الكئيب الملتف بهروب طال كثيراً...

كان يريد الاقتراب منها أكثر، ليراها بكل تفاصيلها الرائعة... بكمالها الذي لا يصنعه إلا إله مثله... ليلمسها ويطمئنها إلى أنه سينسى كل تلك الدهور شرط أن يراها دائماً... ليقول لها أن فنانة مثلها ليست بحاجة إلى ديونيس أو مورفيوس بقدر حاجتها إلى أثينا...

لكنه فوجئ بالمتمرد بروميثيوس يمر كومضة برق ليخطفها ويختفي، وليتركه مع خيبة جديدة وزهرة مسحوقة في القلب...

القلب الذي صار ملازماً للخوف من أثينا شعر أنه أصبح في قبضته، وأن الحكاية قد انتهت، ونسي أنه في كل نهاية وصلها كان يصنع بداية جديدة وينبعث إلى حلم جديد...

وتكررت على مسمعها، وبصوت جديد، عبارات الطمأنة إلى أنها في أيد أمينة، ليست حتماً أيدي أثينا الضارية...

- ولكن... من أنت؟! ولماذا أنقذتني؟!

- أنا بروميثيوس... وقد أنقذتك لأن ديونيس ومورفيوس طلبا ذلك...

شعر أن العبارة الأخيرة كانت مراوغة، فأضاف إليها المزيد من المراوغة:

- ديونيس ومورفيوس اللذين تنكرتِ لهما...

فاندفعت تحاول أن تدافع عن نفسها دون أن تدرك المعاني البعيدة للعبارة:

- لم أتنكر يوماً لهما... فقط طلبت منهما أن يساعداني لإصلاح خطأ اقترفتُه...

- أردت إصلاح خطئك بحق البشر، فأخطأت بحق الآلهة...

لم تعرف بماذا تجيب، وأحست أن ما يحصل محاولة لإذلالها، فأنهت صمتاً قصيراً بسؤال:

- والآن؟!!

أتاها الرد عليه مطراً على أملها الذابل:

- الآن سيساعدك بروميثيوس إله النار لتنقذي المدينة وتحققي حلمك...

وبعد لحظة صمت أضاف:

- ... وحلم ذاك الرجل...

تغاضت عن الإضافة المناورة وركزت بصرها على المساعدة الموعودة:

- حقاً؟!! كيف؟!!

- سآتيك بقطع صغيرة من الشمس توزعينها على أهل المدينة ليحملوها دائماً...

أشرقت السعادة في قلبها وهي تزرع ثقتها في مساعدة الآلهة، فللآلهة دائماً حلولها العظيمة...

القابض على الجمر:

كل شيء فيها كان عجيباً... ظهورها من أعماق حلم... عيشها في خضم الضباب دون غلاصم... عباراتها المفعمة بالتمزيق والإشعال لماء مراوغ... ثقتها المجنونة بإمكان الوصول إلى الشمس... واختفاؤها بشعلة من نار... شعلة أحرقت الخيط الذي كان يربطني بالأمل، وحولت جنوني بالشمس إلى نداء دائم جمع البعض حولي إلى حين ثم فضّهم بعد أن يئسوا... بعد أن شكّوا في أن تكون أراكن قد وُجدت بيننا من قبل!! وكأنهم بدؤوا يلقون تهم الخداع على أبصارهم، كي يجدوا المبررات لقبول الحكم عليها بالإعدام البطيء...

لكن أراكن عادت... بذات غرابة ظهورها الأول واختفائها... بذات ابتسامتها العابقة بالحياة... وبجمر متقد اتقاد شوقي إليها...

كنت أذرع الأمكنة مهدياً صوتي للظلمة، علّه يعود علي ببعض النور، حين داهمتني تلك الشعلة... تمنيت أن تأخذني إلى حيث آخذت آراكن، لكنها كانت قد أتت بأراكن وبكومة من جمر متقد...

بدت لي أمام الجمر وكأنها مبعث الضوء كله، فلم أتمالك أشواقي التي دفعتني لاحتضانها... شعرت للحظة بجفولها في محاولة لدفعي، ثم بيديها الدافئتين تحضنان تلهفي...

في تلك اللحظة بزغ في داخلي حلم جديد... حلم بالطيران وهي معي، وأنا أسمع أنفاسها وأشم عطور ممالك الضياء في ظلمة شعرها... عندها حملتها ورحت أدور بها وأنا أسمع ضحكتها المختلطة بدموع أوجعتني، لكنها كانت أخيراً معي... وأنا كنت أطير...

كنت أطير فرحاً بها، وأطير فرحاً بما جلبتْ من الجمر الذي سيحقق حلمي؛ لكن غصة أمسكت حنجرتي التي انطلقت تنادي كل أولئك الذين تجمعوا ليحملوا جمرهم، كأن تحقيق الأحلام ذاته غصة... أو كأن انفراج كل ألم ٍ ألمٌ...

هل كنتُ من حقق الحلم حقاً؟! هل أنا من أفضى جنونه إلى هذا الجمر؟! هل يحق لي أن أسعد بحلم لم أصنعه بيديّ؟!! أم أن آلامي وحدها كانت كفيلة بصناعته لي؟! وبعدما تحقق هذا الحلم، لأي حلم سأجن بعد اليوم؟!! أنا الذي اعتدت الجنون وما عاد بوسعي أن أعيش بدونه!!

أطبقتْ تلك الأسئلة على سعادتي، لكنني صممت أن لا أسمح لها أن تخفف من فرحتي برؤية كل تلك العيون تتوهج بنور لم تعرف له مثيلاً: وقررت أن أعيش تلك اللحظة قبل أن أشرع في التفكير باللحظة القادمة...

كان الجمر الذي جلبته آراكن قادراً على تمزيق الضباب، وعلى إنارة ما أمام الفرد منا لمسافة كافية كي يقتنع بجدوى عينيه وعظمة وجودها... كان ملمسه مؤلماً، لكنه كان رائعاً... خشي الكثيرون تناوله قبل أن يتأكدوا من أنه لن يحرقهم، لكنهم أعلنوا بحماس المكتشفين أن متعتهم لا تصدق بحمل الجمر الواخز...

ظننت أن الحياة ستنتهي بتحقيق الحلم، كأن السعي لتحقيقه هو الحياة، وكأن تحقيقه هو الموت، بل كأن الموت

هو الحلم الأكبر والأسمى!! لكن ما أتى به الحلم صار يستلزم أن أعيش حياة ثانية لحمايته... لحمايته مما أتى به هو نفسه... فالجمر الذي وُزع على بعض أهل المدينة لم ينشر ضياءه وحسب فيها، فقد نشر ناره أيضاً! لا في البيوت كما خططنا من قبل، ولا في الثياب... بل في النفوس... نفوس كل أولئك الذين كان لهم حلم مختلف، بل وأولئك الذين افتقدوا الحلم نهائياً...

«لماذا لا يتركوننا وشأننا؟! لماذا يزجوننا في حلمهم المجنون؟! إذا كانوا يريدون شمساً وعيوناً فليرحلوا إلى هناك... إلى حيث توجد الشمس وتوجد العيون...»

«أيتحدى أولئك الجاحدون إرادة الآلهة؟! أليست الآلهة من أراد هذا بنا؟! هل نملك القدرة على منعها؟!»

«إلى أي مصير سيقودنا جنونهم؟! أيدخل المرء ناراً إلى بيته المتداعي؟! أينام عاقل وفي صدره عقرب سام؟!»

«تلك العصابة ستقوض طموحاتنا... ستمنعنا من نهب هؤلاء المغلفين بالضباب وبالجهل... ستحرمنا من كل ما يقدمه الخارج لنا، أو ستطالبنا بأن نوصله كله إلى من يستحقونه...»

واختلفت الآراء، لكن النتيجة كانت واحدة رغم اختلاف صيغتها:

«فلنعمل على إعادتهم إلى جادة الصواب...»

«فلنمنعهم من جنونهم...»

«فلنقض عليهم...»

لكن البعض الأكثر دهاء من ضمن هؤلاء أراد أن يوحد الصيغ أو أن يقربها من صيغة واحدة هي الأكثر ملاءمة لمصالحه وشؤونه:

«من يعود إلى جادة الصواب يمكن أن يتركها بعد أن يشعر بالاطمئنان إلى غفلتنا عنه... ومن نمنعه من جنونه سيبقى مجنوناً، ولن نستطيع السيطرة عليه إلى الأبد... أما من نقضي عليه...»

ولأجل هذه الصيغة الموحدة كانت خطة...

القابضون على الجمر حملوا المزيد منه إلى المدينة... إلى أحبائهم وأهلهم... إلى أبنائهم... ليوزعوا ضياء المستقبل عليهم. فرحين بكون عذابهم لم يذهب سدى: رغم أن

الكثيرين منهم كانوا مثلي يشكون في دورهم في تحقيق حلمهم، بل ويشكون في آن يكون هذا الحلم حلمهم ما داموا لم يبنوا لبناته بأيديهم لبنة لبنة...

وفي طرقاتهم اصطدموا بأمواج الآراء المختلفة حول جمرهم، وبالصيغ التي كانت ما تزال مختلفة حتى ذلك الحين، فقاوموا تقوّض الحلم، وأصروا على نشره حتى ينتشر الضياء في المدينة، إلى آن أحدقت الخطة بهم...

كنت أحاول إهداء قبس من الجمر إلى أحدهم حين علا صراخ ودب فزع... ركضنا على هدي الصراخ مصطدمين بجدران رابضة أو بأشباح راكضة، إلى أن وصلت ومعي العديد إلى نار أذكت في ذاكرتي النار التي حاولت أن أصنع بها شمساً، وتدافع الناس لإطفائها لأنها لم تكن تلتهم بقايا أخشاب أو وقود. بل كانت تلتهم بيوتاً لا زال أصحابها فيها...

كان حاملو الجمر في تلك اللحظة كثيرين، وكانوا الأكثر قدرة على التحرك لإخماد النيران أو لإنقاذ المحترقين، بفضل جمراتهم التي كانت تهديهم إلى طريق المياه أو الدلاء أو الحبال...

كانت دقائق عصيبة، نالت فيها النيران من العديد من البيوت وأحرقت العديد من الأيدي الممتدة بإخلاص لإطفائها؛ وكان واضحاً أن ناراً بمثل هذه القسوة والوحشية لا يمكن أن يكون وقودها بيوتاً أو أثاثاً متشبعاً بالرطوبة فقط!! لا بد من أن أحداً فرش أمامها الوقود لتسلك طريقه غير آبهة بمقاومة الماء لها...

وخمد الحريق لتلتهب الخطة... فقد سرت في الجمع المنهك، كالقشعريرة في الجسد، تفسيرات دسها بعض من كانوا منتشرين هناك:

«إنه الجمر الذي جلبه أولئك المجانين...»

«سيسببون لنا في كل يوم حريقاً...»

وانفجرت العبارات حين أخرجت من الركام جثة لامرأة مختنقة محترقة...

«اقبضوا على أولئك القتلة...»

لم أصدق المشهد الذي لا زال حتى اليوم يخز عيوني... كانت المرأة كتلة معجونة من لحم متفحم... هناك الكثير مما تتمنى أن تحافظ على عينيك كي تشاهده، ولكن هناك الكثير أيضاً مما تتمنى لو لم تملك عينين كي لا تشاهده!!

هجم الكثيرون على كل من يحمل في يده جمرة كان يريد أن يهديها إليهم فهدتهم إليه، ورأيت على مبعدة خطوات أشباحاً تهجم باتجاه جمري، فتراجعت خطوتين قبل أن تنقض علي يد وتسحبني بعيداً عن غمار المعركة، لأجد نفسي أمام أراكن، في ضباب لم أعرفه من قبل، لكنني نسيت غموض المكان في خضم استعاري...

- كيف حدث هذا؟! ومن قام به؟!

- أقدر حزنك لمرأى النار ومرأى المرأة المحترقة، لكن لا تحمّل نفسك ذنب هذا...

- كيف؟! وقد كانت أحلامي المجنونة والجمر سبباً في كل ما حدث...

ابتسمت بحنو وقد وضعت يداً دافئة على وجهي وأمالت رأسها قليلاً، ثم قالت:

- للأحلام أيضاً ثمنها...

فاحتججت وقد أوشكت على البكاء:

- ألم أدفع ثمنها من قبل؟!!

فكررتْ بنفس النبرة الحانية:

- للأحلام ثمنها الذي لا نفرغ من دفعه، قبل تحقيقها وبعده.

صمت للحظات حتى أستجمع أنفاسي لأدفع المزيد من حزني نحوها:

- فلماذا يكون ثمنها باهظاً هكذا؟! أردت أن أساعد المدينة فوجدتني أدمرها... أردت إخراجها من مستنقع فدفعتها إلى هاوية...

وبثقتها المعتادة التي لم أعرف مصدرها يوماً، قالت:

- لستَ السبب في هذا... بعضهم تعمد تلك النار، بل وتعمد القتل كي يجد مبرراً لملاحقتكم وقتلكم...

نظرت إليها غير مصدق:

- لا يمكن... لماذا يفعلون هذا؟! كنا نعمل لأجلهم...

ورحت أقلّب أمري...

أما في المدينة فقد كانت حرباً شعواء... ضد الجمر وضد حامليه... البعض من حامليه قدّروا خطورة حمله فرموا بجمراتهم عند أقرب ملاذ لهم، ومن أصر على الاستمرار ألقي القبض عليه وأجبر على ترك الجمر بالقوة، ثم سجن في مكان أعد خصيصاً لمن صاروا الآن يدعون بـ «القتلة»، بانتظار محاكمة سميت بـ «العادلة»؛ والبعض من حاملي

الجمر رفضوا تركه إلى أن استبقوا حكم محاكمتهم «العادلة» بالإعدام، فتركوه فقط عندما صاروا جثثاً هامدة...

هزتني أنباؤهم وأنا أتسلل إلى المدينة للاطمئنان عنهم... دفعتُ بعضهم إلى مغادرة المدينة نحو الأرض التي لا زالت تسمى بأرض الغابات، ورجوت البعض الاختباء إلى أن نجد طريقة نثبت بها براءتنا ونقهر بها ملاحقينا...

وفي أرض الغابات عدنا كما كنا، نجترّ اليأس والألم ونحلم أن نحمي حلمنا، مع فارق لم يكن بسيطاً، وهو انتظارنا في أية لحظة لانقضاض يد متربصة!! أما أراكن فقد كانت برفقتنا في كل مرحلة رغم غيابها أحياناً حيث لم أكن أدري...

ملبومينا:

ما أشد تعاسة البشر حين تكون أحلامهم بعظمة الآلهة!

كانت سعادة أراكن كبيرة بالمساعدة التي قدمها لها بروميثيوس، لكن حلمها هي الأخرى بأن تحمي حلمها دفعها لطلب المساعدة مرة أخرى من الآلهة المتكاتفة لمساعدتها، فأنقذوا جبل من براثن غضب الجموع التي لمحت جثة المرأة المحترقة، وحملوه إليها في ملجئها الآمن من سخط أثينا، في اللحظة التي كانت فيها سدود صبر أثينا قد تحطمت أمام فعلة بروميثيوس الأخيرة... فقد كان على وشك الإمساك بها... على وشك أن يلحق بها العقاب الذي أراده لها... أن يمنحها العفو الذي أراده... أن يلفها تحت جناحه الذي أهاضه إله متمرد هارب...

لذلك هاجم الكرمة الإلهية التي زرعها ديونيس خصيصاً كي تكون ملجأ لأراكن في خضم حياكتها لخيوط الهواء،

فمزقها في نوبة لم يعرف لها مثيلاً من غضبه الجامح، ودمر نول أراكن ومغازلها، ثم خاض لجج الضباب الذي صنعته بيديها، كي يشعلها ويشعل معها هزيمته التي أتته على يديها رغم أن صانعها كان إلهاً مارقاً...

وفي المدينة التي كانت قد خلت من أراكن عند وصول أثينا، ومن جبل عند اقتراب رافضيه منه، تنبه أثينا إلى النيران والفزع الذي ألهى الناس عن صوت غضبه المتلاطم، فراح يراقب ما يجري حتى استوعب القصة كلها، واتخذ قراراً بأن يحارب أراكن ورجلها وآلهتها العاصية بطريقة مختلفة...

❖ ❖ ❖

- لماذا لا تنقذون المدينة من هؤلاء؟!

وبعد صمت قصير أضافت بكل ما يحمل صوتها من التوسل:

- من أجلي... أرجوكم...

كادت قلوب الآلهة تنفطر لرجائها، لكنهم رفضوا التدخل أكثر في حياة البشر التي كانوا ممنوعين من التدخل فيها إلى حد إحداث تغييرات ضخمة...

- إن كنتُ قد ساعدتك بدءاً فلأنني كنت أغامر بمكانتي في عالم الآلهة...

- دعي أولئك البشر يتدبرون أمرهم، فلن يعدموا وسيلة يحلون بها مشاكلهم، حتى إن كانت تلك الوسيلة دماءهم!!

- لم يتدخل الآلهة في حياة البشر مرة إلا وصنعوا منها جحيماً... راقبي ما آلت إليه حالهم بسبب تدخل ديونيس في حياتك...

- ساعدناك كثيراً، ولأجلك ساعدنا رجلاً كنا نود أن...

وتوقف الإله المتحدث باحثاً عن عبارة بديلة لعبارته التي زل لسانه بها، ولما لم يجد بدأ من جديد:

- ولا زلنا على استعداد لمساعدتك رغم كل شيء، شرط أن تلزمي مكانك هذا مع جبلك هذا...

ثم غابت أصوات الآلهة لتعود أراكن إلى جبل المتوقد كجمره، والذي كان ينتظرها بصبر كاد يفرغ...

- نجحت خطتنا...

وابتسم أكثرهم خبثاً ودهاء:

- بل مؤامرتنا...

شعر بعضهم بثقل الكلمة على صدره، فساد الصمت للحظات تابع بعدها كلامه المتحدي:

- لا تصمتوا... ألم نخطط لحرق المدينة كي نتهم أولئك المجانين باقتراف هذه الفعلة؟!! ألم نخطط للقضاء عليهم بأية طريقة؟!! وهل تكون الخطة المبنية على الخداع والإيذاء، بل والقتل إلا مؤامرة؟!!

وظل الصمت ثقيلاً فتابع:

- الآن صرنا كلنا سواء... مَن خطط ومن نفذ... فلا يشعرنّ أحدكم بندم أو برغبة في التراجع، لأنها ستكون النهاية، بدلاً من البداية... البداية بعيش حياة تنعمون فيها بكل ما تشتهون... حتى بالجمر الذي كنتم تحاربونه... كي تظلوا أنتم فقط المبصرين في مدينة لا يرى أحد فيها ما يمكن أن تقترفوا بحقه...

بعضهم كان يشعر أنه تورط في قتل لم يرده، وبعضهم كان يشعر برغبة في التراجع، لكنه يدرك أن التراجع صار مستحيلاً، خصوصاً وأن مصيره ماثل أمامه في مصير من حملوا الجمر فسُجنوا أو قتِلوا، أو في مصير

مـن رفـضوا التمـرد فحُكـم علـيهم بالقتـل ظلامـاً... وبعضهم كان ينتظر الغنائم ويفكر فيها فقط، مع تفضيل للمواربة في استخدام الألفاظ المتعلقة بفعلتهم... لكنهم كانوا يدركون جميعاً أنهم صاروا شركاء في الخطة، بل في المؤامرة...

- بقي أن نقبض على الفارين كي لا يعودوا إلى شغبهم الجمري ثانية، وأن نقبض على المجنون الأكبر فيهم كي ننام مطمئنين...

كان أثينا محيطاً بهذا الحوار، فتدخل في اللحظة التي رأى أنها المناسبة:

- فافعلوا ما يأتي به إليكم، دون أن تذهبوا إليه...

أثار الصوت الرخيم المحيط بجمع الرجال الرعب في نفوسهم، فراحوا ينظرون حولهم على هدي جمراتهم المسلوبة من أصحابها باحثين عن صاحبه!!

- من المتكلم؟!!

رفع أحدهم صوته متردداً مرتبكاً...

- أنا الإله أثينا...

كانت قد مرت دهور منذ خاطب إله كائناً بشرياً آخر مرة، على ما كانوا يعرفون، فخرّ الرجال ساجدين للإله الذي تنازل لمخاطبتهم ولتقديم المساعدة لهم...

- هددوا بقتل سجنائكم إن لم يعد ذاك المارق...

وغاب صوت الإله الذي كان واثقاً من أن أراكن لن تترك جبل الذي لن يترك الرجال يُقتلون بسببه...

كنت أهمّ بالانطلاق حين عادت...

- لقد تأخرت كثيراً...

وبوجه واجم أجابت:

- لن أتركك بعد اليوم...

تمنيت لو أنني غادرت مكاني قبل عودتها، فكيف سأخبرها؟! هل سأتركها هنا؟! هل ستنتهي قصتنا هنا؟! وهل بدأت قصتنا كي تنتهي؟! ليتني غادرت قبل عودتها...

وتحسستْ صمتي المحمل بهواجسي، فسألت:

- ما بك؟!

فأجبتها بصعوبة مفارقة الروح، متعمداً أن أضع الكلمة السكين في بداية جملتي:

- سأتركك وأعود إلى المدينة...

لم تفاجأ، بل ابتسمت بهدوء لم أتوقعه:

- تتركني؟! لماذا؟!

ثم أضافت بحزم أرادت به إنهاء الحديث عند كلماتها:

- سنذهب معاً...

لم أرغب في الامتثال لقرارها فصرختُ رافضاً:

- لكنني ذاهب إلى حرب قد لا أعود منها...

وانتبهتُ إلى استعمالي الأول لكلمة الحرب على أنها واقع فعلي أشترك أنا فيه!! كنت قد سمعت عن الحروب وقرأت عنها، لكن مدينتنا المحاصرة بجيوش الضباب كانت عصية على اقتحام جيوش البشر لها وعاجزة عن كسر حصارها، لهذا ظلت الحروب صوراً مرسومة في ذهني إلى جانب كل الصور التي حرمنا الحصار من رؤيتها...

- حربك حربي...

«لا يليق بكل هذا الجمال أن يتحدث عن كل ذاك القبح...»

فكرت في هذا مقترباً منها، وألقيت بكفيّ على كتفيها في محاولة لإقناعها...

- أراكن... رغم مساعدتك لي إلا أنني حتى هذه اللحظة لم أعرف من تكونين!! وأنا على ثقة من أنك لست من هذه

المدينة، فكل شيء فيك يدل على هذا... لهذا لا أريد أن أورطك في معاركي الخاسرة...

كان وجهها مشعاً أكثر من الجمرات التي حملناها حين ابتسمت لتمدني بأسلحةٍ وشجاعة جيش كامل:

- حتى ولو كان الموت نتيجة معركتنا، فإنها لن تكون خاسرة حتماً!!

كان في عينيها امتداد لآفاق كان مستحيلاً آن أعرفها في مدينة الآفاق المسدودة بجدار ملتصق مباشرة بالعيون... ضممتها إلى صدري لأضم بها دفء شموس العالم كلها، وسمعت في أنفاسها ما لم أسمعه من حفيف أشجار وزقزقة عصافير! وأتاني صوتها منساباً من أعماق الحزن المتكدس في قلبها:

لست وحدك سجين هذه المدينة!! أنا أيضاً سجينتها... وعدم امتلاكي للغلاصم لم يكن يعني قدرتي على مغادرتها، كما لم يعد يعني عدم تأثري بضبابها قدرتي على الاستمرار في الحياة فيها!!

ثم رفعت رأسها لتواجه عينيّ بعبارة لم يثرني غموضها بقدر ما أثارني الألم المختزن في نبرتها:

- لقد صنعت بنفسي سجني هذا!! وأريد أن أدمره بأي ثمن!!

وعادت لتلقي رأسها على صدري ضاغطة جسدها على جسدي طاردة كل ما بينهما من ضباب... كانت المرة الثانية التي أحتضنها بها... المرة الأولى كانت عندما عادت بالجمر لتحقيق الحلم، وها هي المرة الثانية عند السعي لإحياء الحلم ذاته الذي راح يحتضر في لحظة ميلاده! كنت أحس دائماً بأن ما تخفيه يبعدها عني إلى الحد الذي يجعلني أخشى ملامستها، لكنها في تلك اللحظات كانت قريبة جداً، إلى الحد الذي كسّر كل أسنة الأسرار المترصدة... فرحت أفض غموضها يدفعني نبض مضطرم في روحي ويشجعني تهاوي التوجس الذي لفها منذ لقائنا العابر للأحلام، فدخلت معها في إيقاعات الضياء والسماوات المتسعة والخضرة المتهادية تحت مداعبة النسائم... دخلت معها في زمن لا ينتمي إلى الزمن... في الزمن الذي لا تحد بدايتَه ولادةٌ ولا يحد نهايته موت... وعشت في غمرة امتلاكي لها سعادة امتلاكي للحياة كلها... والأحلام كلها... وللأبدية...

ملبومينا:

«عصبة من المجانين يعلنون التمرد في مدينة الضباب، ويتصدى لها مواطنوها الشرفاء، بعد التسبب بمقتل امرأة بريئة من سكان المدينة...»

هذا ما تناقله العالم في الخارج، لكن الأخبار كاملة كانت في الداخل فقط، فقد أعلِن أن حاملي الجمر سيُقتلون ما لم يظهر محرضهم الأول ومزودتهم بالجمر... وراح الخبر يُنقل عمداً بين منزل وآخر وشارع وآخر كي يصل سريعاً إلى المتمرد الأول والساحرة الغريبة المرافقة له! لكن ذاك المتمرد وتلك المرأة ما كانا بحاجة إلى أن يصلهما ذاك الخبر كي يعودا، فقد عادا طائعين... كانا يخططان لدخول المدينة خلسة كي يتسللا إلى المكان الذي صار سجناً لرفاقهم كي يطلقوا سراحهم، وإلى حيث خُبّئ الجمر ليكون فقط في أيدي مقاومي

وجوده، كي يحرروه ويعيدوا توزيعه على من سيبقى معهم، وكي يبنوا مدينتهم الخاصة بعيداً، ففي الضباب متسع لهم خارج تلك المدينة التي صارت معادية لهم ولبصرها... لكن...

❖ ❖ ❖

أثينا ظل في المدينة منتظراً عودة أراكن وغرمائه من الآلهة ومن البشر، فقد اكتفى من الهزيمة بحثاً عنها، وصار يريد أن يقاتل حتى الآلهة كي يظفر بها...

أما الآلهة الحامية لأراكن فقد استوقفهم ندم على رفض آعلنه كل منهم دون أن يعلن حقيقة سببه، بعد أن تركوا أراكن لمصيرها...

بعد تردد قال ديونيس:

- أتريدون حقاً أن تتخلوا عنها؟!!

وكأنه كان ينتظر عبارة لو لم تُقل لقالها هو، أجاب مورفيوس:

- كنت أظن أننا سنخيفها كي تختارنا وتظل معنا...

فقال الثالث كأنه يتابع ما بدأه الثاني:

- لكنها اختارت أن تتركنا لأجل ذاك الرجل... أليس هذا تمرداً؟!

وتذكر أنه آخر من يمكن أن يتكلم عن التمرد بلهجة المستنكر، فلم يُتمّ ما أراد قوله...

وبعد صمت ثقيل تمتم ديونيس بحسرة موجعة:

- أياً كان اختيارها، فهي لن تكون لنا!! لكننا على الأقل نستطيع أن نحميها من أن تكون ضحية لأثينا ولأولئك المتربصين بها!!

وكأن الآلهة الثلاثة ما كانوا بحاجة إلى هذا النقاش ليقتنعوا بالعودة إليها ليساعدوها، فعادوا ليشهدوا بقلوب كادت تنفطر تلك الحميمية التي ضمت جسدَي هذين البشريين، فصارا أقوى من أن يحسبا حساباً لتهديد الآلهة أو تهديد البشر...

تفجر في قلب كل منهم شعور ربما كان هو الشعور الذي يسميه البشر بالغيرة!! شعروا بأنهم مقيدون بألوهيتهم، وتمنوا لو يستطيعوا التحرر منها، ليعيشوا لحظات كتلك التي كانوا يراقبونها!!

وبشماتة بادية تكلم بروميثيوس:

- ها قد داست شرطك يا ديونيس...

وبألم الاعتراف المكابر قال ديونيس:

- لقد داستنا جميعاً ومنذ زمن طويل!!

فسارع مورفيوس للتأكد من قصد ديونيس المجروح:

- هل تعني أنك ستتركها وتتركنا؟!!

فأتاه الصوت ذاته:

- فات الأوان... فللشروط أيضاً شروطها...

كنت أرغب في كتابتي لهذه القصة أن أكون راوية فقط لأحداثها، بعيدة عن أن أتدخل فيها، لأحقق ألوهيتي كإلهة للتراجيديا... لكنني حدثاً بعد حدث وسطراً بعد سطر من هذه القصة وجدت نفسي أنجرف فيها... في التعاطف مع شخصياتها... في الرفض لآلامهم والشفقة على أحزانهم... ووجدت نفسي في موقف كنت أجده غريباً لدى الآلهة المتمردة... موقفهم من أراكن التي رفضتهم وتحدت شروطهم فسامحوها!! بل وتمنوا لو كانوا بشراً كي يكونوا أقرب إليها... كي يتمكنوا من

تحدي ذاك البشري المسوخ لنيل حبها الذي عجزوا عن نيله رغم كل ما قدموه لها!! وجدت نفسي أنجرّ خلف رغبة مشابهة كي أكسب حب ذاك الرجل المتلفع بالتحدي والرفض... كي أعيش بقربه تلك اللحظات التي رحت أراقبها بعيداً عنه وعن أولئك الآلهة المفجوعين، لأحس بالأمنية ذاتها والفجيعة ذاتها والعجز ذاته... ولتتفجر في نفسي روح التحدي ذاتها التي تفجرت في أرواحهم حين قرروا القتال من أجل فتاتهم فتبعوها إلى تلك المدينة المحفوفة بالفخاخ والملغومة بانتظار المنتقمين من بشر وآلهة...

«حتى النقمة قد تصبح نعمة في ساعة ما...»

هذا ما تصوره العائدان بحثاً عن تكفير لذنب اقترفاه بأيدي أحلامهما، فالضباب كما تصورا سيكون حجاباً يمنع العيون الآيلة للانطفاء من ترصدهما والانقضاض عليهما بعد أن خبأ جمرهما في صدريهما كي لا يفضحهما...

كان هذا فقط لأنهما لم يتوقعا أن تكون تلك العيون مزودة بأثينا... أثينا الذي رأى أراكن تتقدم نحو فخ ظن أنه هو من نجح في اجتذابها إليه، فجهز نفسه لانتقام متأخر أو لاعتذار متأخر! بينما كان الرجال بانتظار المتمرد بعد أن أعلمهم أثينا بقرب وصوله...

كان جبل يمسك بيد أراكن متقدماً ببطء واثق عبر الضباب الرابض حين اهتزت الأرض ومادت وعلا صراخ أراكن التي لفت ذراعيها حوله مستنجدة:

- إنه أثينا... ساعدني...

لم يفهم الموقف، لكنه احتضنها بنفس القوة التي لاصقته بها وسمع صوتاً جباراً:

- أخيراً يا أراكن...

ثم لمح جمراً من أحلامه يحمله رافضوه مقتربين وقد راح أحدهم يصرخ:

- أخيراً أيها المارق...

كانت أراكن قد غرقت في انتحاب شديد، بينما شعر هو بالعجز عن الحراك وهو مقيد برجائها وخوفها، حين سمع أصواتاً جبارة جديدة تعلن التحدي:

- لا تعلن الحرب يا أثينا...

- الأفضل أن ترجع من حيث أتيت، كي لا تمرغ أنفك بالوحل...

وزمجر بروميثيوس الذي أراد للمعركة أن تكون معركة حقاً:

- بل واجهني يا أثينا إن كنت تستطيع...

في هذا المشهد المروع تحول البشر إلى حروف قزمة هامشية على لوحة عملاقة مكتوبة ببحار من الحبر!!

عندها شعرتُ أن الوقت قد حان كي لا أظل مراقبة وراوية لتلك القصة، بل لأصير إحدى شخصياتها!!

اغتنمت فرصة الزمجرة الهادرة للآلهة المهددة، والانطواء المرتعب للآدميين المصعوقين لأهجم كصاعقة لاختطاف جبل من بينهم، وقد قررت أن أهبه ما لم يوهب لبشري من قبله... قررت أن أحمله لأحلّق به فوق

الأزمان كي أضعه في زمن محاذ صارت فيه الآلهة مجرد أساطير، ولم تُصنع فيه مدينة الضباب!! شعرتُ للحظات أنني لن أتمكن من حمله إلا ملتصقاً بأراكن التي تشبث بها تشبثه بروحه، لكنني كنت مصرة إصرار الآلهة على انتزاعه منها، كي لا يكون لها، أو حتى لغيري ولو في زمن آخر!! كان مذهولاً غير دارٍ بما يحدث من حوله، بينما كنت أعود به في طريق الزمن إلى المفترق الذي قررتْ عنده أراكن الانتحار معلقة بخيط من خيوطها إلى شجرة مقدسة، ثم انطلقتُ في الطريق الذي كان ديونيس قد فشل فيه في إنقاذها، حتى وصلتُ به إلى نقطة محاذية للنقطة التي أخذته منها... لألقيه، وقد ذهبت الدهشة بوعيه، في طريق من طرق المدينة التي كانت تدعى على مبعدة زمن مواز مدينة الضباب!!

هناك تجمع حوله العديد من الأشخاص محاولين إيقاظه ومساعدته، وقد عرفوا أنه شخص غريب عن مدينتهم، دون أن يعرفوا أنه غريب حتى عن زمنهم أيضاً!! وظللت أطوف حوله إلى أن تأكدت من سلامته عندما فتح عينيه... عندها عدت إلى مدينة الضباب كي

أشهد المعركة التي توقعت أن تكون قد بدأت، كي أتمّ حكايتي، لكن...

❖ ❖ ❖

ما لا تتوقع حدوثه قد يحدث بمنتهى البساطة في اللحظة التي تستنفر فيها قواك لمواجهة ما كنت متأكداً من أنه سيحدث، ولكنه، وبكل بساطة أيضاً، لا يحدث!!

المعركة بين الآلهة كانت قد صارت واقعاً مؤكداً بعد أن غدت على مبعدة اشتباك مدمر... لكن المعركة لم تحدث، حين جاء التدخل من حيث لم يحسب أحد حساباً!! زيوس... رب الأرباب وكبير الآلهة، الذي كان مطّلعاً على كل تفاصيل الصراع الذي بدأ بتحدي أراكن لأثينا، ساءه التمرد الذي اشترك فيه الآلهة بسبب امرأة من طين، وساءه أن يتصرف الآلهة تصرف الحمقى في معركة قد تقضي على هيبة الآلهة أمام أشد المخلوقات ضعة، وساءه أن يكثر المتمردون إلى الحد الذي قد يصبح عنده عاجزاً عن مواجهتهم؛ فدفع بغضبه ريحاً إلهية عاتية اقتلعت الآلهة والضباب والمدينة لترميها كلها في شتات الكون ملعونة مطاردة إلى الأبد...

شعرتُ وأنا أشرف على ذاك المشهد المرعب أنني أحسنت فعلاً بتركي لذاك الزمان وبإنقاذي لذاك الرجل من غضب الإله الأكبر... بل شعرت أنه هو من أنقذني، وإن كنت أعتقد أن غضب زيوس سيطالني لاشتراكي في هذه القصة ولتدخّلي فيها!!

ملبومينا ثانيةً:

هؤلاء البشر... هؤلاء المساكين... لا تستطيع عقولهم تجاوز زمانهم أو مكانهم... لهذا تدفعهم إلى الفهم المعتقل بين قضبان الأزمنة والأمكنة المحدودة التي يعونها، إلى الحد الذي قد يصنعون عنده من قصةٍ قصةً مختلفة تماماً، كتلك القصة التي نشرتها جرائدهم بمنتهى السذاجة والحمق، والتي قد تكون آخر ما يتيسر لي قصُّه قبل أن تطالني عقوبة زيوس:

«تم العثور منذ أيام في أحد شوارع المدينة على رجل فاقد للوعي، وعند استيقاظه تبين أنه فاقد للذاكرة أو مجنون! وقد أوصله بعض المواطنين إلى مستشفى الأمراض النفسية، حيث راح يهلوس بأحداث غريبة حصلت معه رافضاً بخوف أن يلمسه أي شخص، ثم طلب أوراقاً وأقلاماً وانكب على كتابة طويلة رفض خلالها

النوم والطعام، واكتفى بطلب الماء بين الحين والآخر، وبطلب المزيد من الأوراق... واستغرق في هذه الكتابة عدة أيام، غرق بعد انتهائه منها في نوم عميق طويل! وقد وجد الأطباء بعد نومه أنه قسّم ما كتبه إلى مجموعتين من الأوراق... الأولى يسميها سيرة ذاتية ويذكر فيها أن اسمه «جبل» ويتحدث عن أحداث غريبة وقعت معه في مدينة مجهولة لنا يسميها مدينة الضباب أو مدينة الغلاصم، ومع امرأة تدعى أراكن، يُعتقد أنه يقصد بها فتاة أسطورية عند الإغريق تحدت أثينا إله الفنون والصنائع النسوية بمهارتها في الحياكة والتطريز! وما نعرفه عنها أن أثينا عاقبها بتمزيق ما صنعت فانتحرت حزناً، مما أثار ندم أثينا فحولها إلى عنكبوت لتستمر في الغزل إلى الأبد...

أما المجموعة الثانية من الأوراق فقد كتبها على لسان ملبومينا، وهي إلهة التراجيديا عند الإغريق أيضاً، محاولاً من خلالها توضيح ما غمض من أحداث المجموعة الأولى من خلال تدخلات آلهة مختلفة في حياة أراكن وحياته وحياة المدينة...

وقد لفت انتباه الأطباء أثناء نوم هذا الرجل الذي يسمي نفسه بـ «جبل» وجود شيء ما تحت ثيابه عند صدره تماماً! وعندما كشفوا عنه وجدوا قطعة متوهجة بشكل غريب من الجمر الحارق، ومع هذا فلم يُصَب صدر الرجل إلا بحروق بسيطة لن تحتاج إلا إلى القليل من العلاج!!

فيرجى ممن يعرف أية معلومة عن هذا الرجل المجهول التوجه إلى مستشفى الأمراض النفسية للإدلاء بها كي يُسهّل علاجه وإعادته إلى ذويه!!

فهرس

الصفحة

الإهداء ٥
تنويه ٧
ملبومينا ٩
الغريب ٢٣
ملبومينا ٣١
المجنون ٣٥
ملبومينا ٥١
الحالم ٥٥
ملبومينا ٦١
الوارث ٧١
ملبومينا ٧٥
المنعتق ٨٧
ملبومينا ٩٩
القابض على الجمر ١٠٣
ملبومينا ١١٣
المحارب ١١٩
ملبومينا ١٢٣
ملبومينا ثانية ١٣٣

الطبعة الأولى / ٢٠٠٨

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

هيسم جادو أبو سعيد

- من مواليد السويداء ١٩٧٤.
- حاصل على الماجستير في التربية عام ٢٠٠٢م من جامعة دمشق.
- يعمل مدرّساً في محافظة السويداء منذ عام ١٩٩٥م.

❖ الجوائز الأدبية التي حصل عليها:

- جائزة المزرعة للإبداع الأدبي في القصة القصيرة ٢٠٠٢م.
- جائزة اتحاد الكتاب العرب في القصة القصيرة ٢٠٠٣م.
- تنويه جائزة المزرعة للإبداع الفني في المجموعة القصصية ٢٠٠٤م.
- جائزة اتحاد الكتاب العرب في النص المسرحي ٢٠٠٤م.
- جائزة البتاني في القصة القصيرة ٢٠٠٥م.
- جائزة المزرعة للإبداع الأدبي في الرواية ٢٠٠٥م.
- جائزة الجولان للإبداع الأدبي في النص المسرحي ٢٠٠٥م.
- جائزة وزارة الثقافة لأدباء الأطفال ٢٠٠٦م.
- جائزة مجلس مدينة السويداء للإبداع الأدبي في القصة القصيرة ٢٠٠٦م.
- جائزة الجولان للإبداع الأدبي في القصة القصيرة ٢٠٠٧م.
- تنويه جائزة الشارقة للإبداع العربي في الرواية ٢٠٠٨م.
- نشر العديد من المواد الأدبية (شعر - قصة) في بعض الدوريات السورية.
- صدرت له رواية بعنوان (تسعاً وتسعين أغنية) عام ٢٠٠٨م.

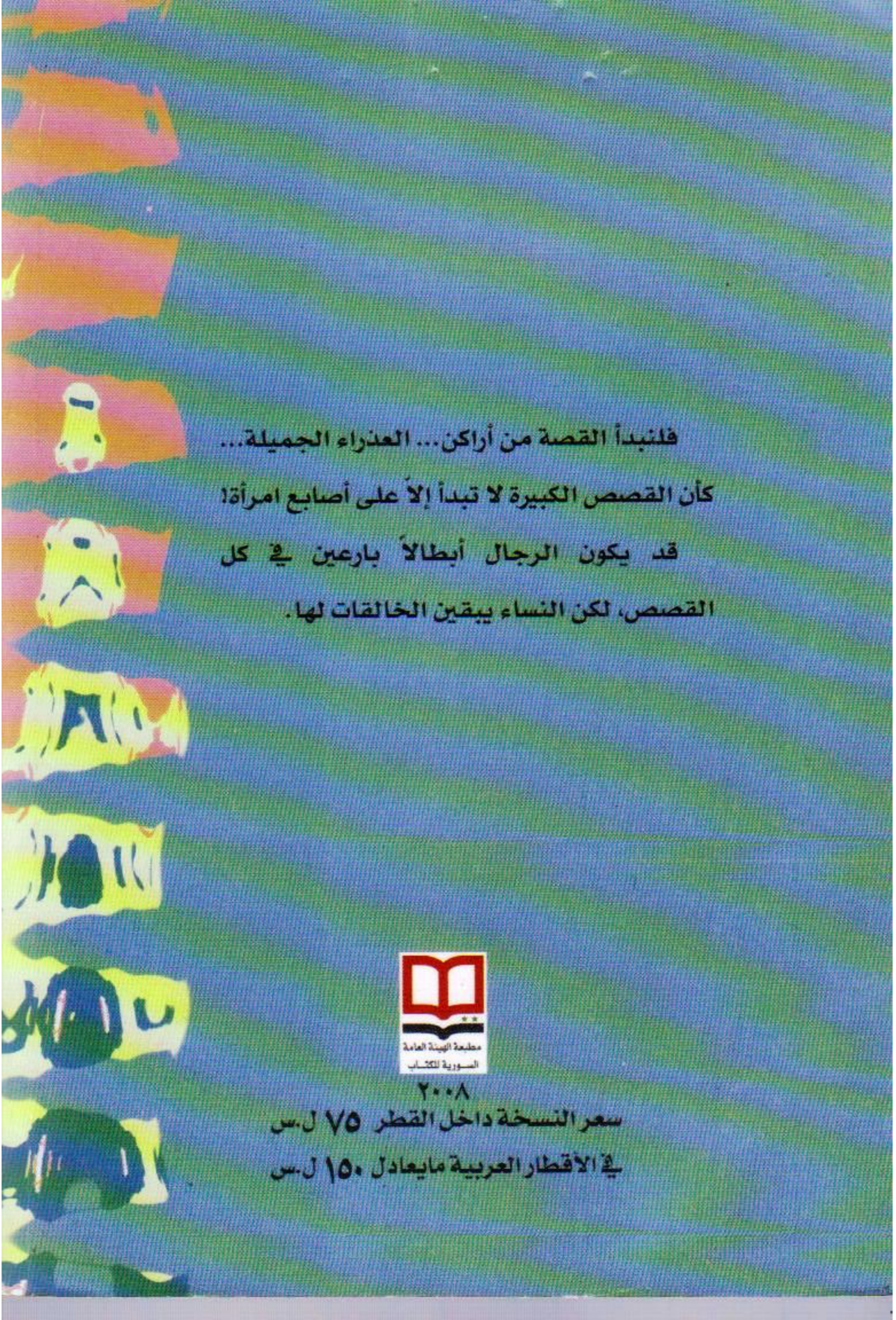

فلنبدأ القصة من أراكن... العذراء الجميلة...

كأن القصص الكبيرة لا تبدأ إلاّ على أصابع امرأة!

قد يكون الرجال أبطالاً بارعين في كل القصص، لكن النساء يبقين الخالقات لها.

مطبعة الهيئة العامة السورية للكتاب

٢٠٠٨

سعر النسخة داخل القطر ٧٥ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل ١٥٠ ل.س